

# مدرسة النابنج المصري في العصر العثماني

## محاضرات

ألقاها

دكتور محمد أنيس

أستاذ التاريخ الحديث المساعد  
كلية الآداب — جامعة القاهرة

مكتبة  
دار الجليل

دار الجليل

دار الجليل

دار الجليل

دار الجليل للطباعة  
في شارع مصر الزاوية - النجيلة  
تلفون: ٤١٢٩٦

إهداء

إلى فقيه التاريخ العربي الحديث أستاذنا محمد شفيق غربال

المؤلف

تاريخ مصر في العصر العثماني من الفترات التاريخية التي لم يهتم المؤرخون  
بها اهتماما كافيا لا في مصر ولا في الدوائر العلمية في الغرب . ولم يبدأ هذا  
الاهتمام بشكل جدي إلا في السنوات الأخيرة . ففي الغرب خرج الاهتمام  
من إنجلترا ومن مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في لندن ، فقد  
كتب الأستاذان Gibb, Bowen كتابهما ( المجتمع الإسلامي في القرن  
الثامن عشر ) عام ١٩٥٠ . ولا أعلم ما إذا كان هذا العمل سيعمل بعد وفاة بوين .  
على أن الاهتمام بتاريخ مصر العثمانية استمر في مدرسة الدراسات الشرقية ،  
فقد كتب P. Holt مقالين في مجلة هذه المدرسة لعامي ١٩٥٩ و ١٩٦١ ؛  
الأولى عن وثيقة رضوان بك وأصل المصاليك الجراكسة والثانية عن  
( الباكوية في مصر العثمانية في القرن السابع عشر ) ، كما كتب دافيد ايلون  
D. Ayalon في نفس المجلة ١٩٦١ بحثه عن عبد الرحمن الجبرتي .

ويبدو أن الاهتمام بهذه الحقبة التاريخية قد بدأ يظهر في الدراسة الجامعية  
الأمريكية أيضا ، فقد نشر ستانفورد شو S. show رسالته عن ( التنظيم  
الإداري والمالي في مصر العثمانية ) ١٩٦٢ .

ولعل السبب في إهمال هذه الحقبة التاريخية لهذه الفترة الطويلة أن  
التطورات السريعة التي نزلت بمصر منذ مطلع القرن التاسع عشر بعد اتصال  
مصر بالغرب والحضارة الغربية والاستعمار الغربي جعل الدراسات التاريخية  
عن مصر تركز حول القرن التاسع عشر .

وقد نحت الدراسات التاريخية في مصر نفسها هذا النحو ، فالحركة  
التاريخية النشطة التي شاهدها مصر في أواخر العشرينات وفي الثلاثينات كان  
يقوم بها مؤرخون أجانب ويرعاها القصر . ولما كانت هذه الحركة قد  
قصد بها كتابة تاريخ مصر دفاعا عن سلوك وسياسة أسرة محمد علي ، لذلك  
لم تهتم بفترة الحكم العثماني . ومع ذلك فحين تولى المصريون زمام هذه  
الحركة التاريخية ، شأهت المكتبة التاريخية اهتماما واضحا بالعصر العثماني .

فقد نشر الأستاذ محمد شفيق غربال في عام ١٩٣٦ مخطوط (مصر عند مفرق الطرق — رسالة حسين أفندي الروزناجي) — وفي هذه الفترة أيضا قدم الأستاذ محمد محمد توفيق رسالته عن (خط القرمة) وهو أحد المخطوط التي كانت تكتب بها حسابات المالية والأوامر الإدارية في العصر العثماني، كذلك كتب محمد رفعت رمضان رسالته للماجستير عن (علي بك الكبير). ولكن بصرف النظر عن هذه المحاولات لم تستكمل دراسة تاريخ مصر العثماني في مصر.

#### ماهي أهم مصادر تاريخ مصر العثمانية المعاصرة.

نستطيع أن نقسم هذه المصادر المعاصرة إلى أنواع ثلاثة: أولاً — الوثائق الرسمية. وهذه الوثائق منها المصري والتركي والأوربي. أما الوثائق المصرية فهي إما بدار المحفوظات بالقلعة أو في دفاتر المحكمة الشرعية أو وزارة الأوقاف المصرية — وفي مقال للأستاذ ستانفورد شو في مجلة معهد المخطوطات التابعة للجامعة العربية (١) عرض المؤلف للوثائق العثمانية الموجودة بدار المحفوظات بالقلعة وفي دفتر خانة المحكمة الشرعية. وخلاصة المقال أنه بينما تشتمل دار المحفوظات على وثائق ذات أهمية كبرى من الناحيتين المالية والإدارية، تتركز أهمية وثائق المحكمة الشرعية ووزارة الأوقاف في الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية (٢).

أما بالنسبة للأرشيف التركي فالمعلومات التي لدينا مستمدة من مقال شو السابق الذكر. ويتضح منه أن الجهود التي بذلت في تركيا لجمع المحفوظات وترتيبها في العشرينات الأخيرة قد أسفرت عن معلومات كثيرة وهامة فيما يتعلق بالشام والعراق وأن ما وجد متعلقا بمصر قليل. ويبدو من هذه الدراسة التي قام بها شو في الأرشيف التركي أن مركز الثقل في وثائق العصر العثماني بمصر

(١) المجلد الثاني — الجزء الأول — مايو ١٩٥٦.

(٢) راجع مقال الدكتور محمد أنيس (حقائق جديدة عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية) المجلة التاريخية لسنة ١٩٦٢ من ١٤٦ وما بعدها.

موجود في دار المحفوظات بالقاهرة. وقد حان الوقت لأن تهتم الدوائر العلمية بهذه الوثائق وأن تعد الطلاب أعدادا كافيا لدراسة وثائق دار المحفوظات المتعلقة بالعصر العثماني.

وأما الأرشيف الأوربي في الخارج فهو غني أيضا بما يتعلق بتاريخ مصر في العهد العثماني ونخص بالذات أرشيف البندقية ومرسيليا ولندن — والأرشيف في هذه المدن الثلاث يتناول بصفة رئيسية نشاط الدول الأجنبية السياسية والتجارية في ذلك الوقت وإن كانت تحتوي كذلك على وثائق خاصة بالأحوال الداخلية في مصر — وقد درس شارل رو Charles — Roux الأرشيف الفرنسي وأخرج كتابه les echelles Françaises de Levant كما درس الأرشيف الانجليزي وأخرج كتابه L'Angleterre et l'isme du Canal de Suez كذلك قدر لكاتب هذه السطور أن يدرس الأرشيف الانجليزي في العصر العثماني وأن يخرج من هذه الدراسة بحث

The development of British interest in Egypt in the late 18th Century

أما أرشيف البندقية فمع أنه اغنى الأرشيفات الأوربية فيما يتعلق بهذا الموضوع، إلا أنه لم يكن، فيما نعلم موضع دراسة علمية حتى الآن (١).  
ثانياً — الكتاب المعاصرون — من هؤلاء مجموعة الرحالة الاجانب الذين زاروا مصر خلال العصر العثماني وكتبوا عن أحوالها. في مقدمة هؤلاء مجموعة الدراسات التي كتبها علماء الحملة الفرنسية في مؤلفهم الكبير (وصف مصر) وهذا المؤلف رغم خطوره لا يصور أحوال مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية تصويرا دقيقا إلا في الفترة السابقة للاحتلال الفرنسي مباشرة. وبالنسبة للرحالة الفرنسيين جمعهم الاستاذ M. Carré في دراسة تحت عنوان:

(١) نعلم أن الدكتور توفيق اسكندر أستاذ الوثائق والمكتبات بجامعة القاهرة ومدير دار الوثائق بعبدين قد درس أرشيف البندقية وصور منه الكثير مما يتعلق بمصر ويقوم الآن بدراسة ما صورته من هذه الوثائق.

راجع مقال الدكتور محمد أنيس (مصر عند منحنى القرن الثامن عشر — مصادره ووثائقه التاريخية) المجلة التاريخية ١٩٥٠.

Les Voyageurs et ecrivains Francaises en Egypte وهذه الدراسة تناول الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر في القرن التاسع عشر وما قبله وإن كان يكاد يقتصر في دراسته على الفترة السابقة للقرن التاسع عشر على عدد محدود من هؤلاء الرحالة. أما Clement فقد عني بدراسة الرحالة الفرنسيين في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر وذلك في كتابه Les Francais d'Egypte au XVI et XVII siecles ولذلك تعتبر دراسة كلنت مكملة لما فعله كاريه .

أما بالنسبة للرحالة الإنجليز فلم تظهر دراسة كاملة لهم في العهد العثماني وإن كان كاتب هذه السطور قد حاول دراسة مجموعة منهم من الذين زاروا مصر في النصف الثامن من القرن الثامن عشر (١) .

ويلاحظ حول هذا النوع من المصادر بالذات رغم أهميته أنه يجب يؤخذ بحذر شديد . فالأوروبيون بسبب الأوضاع العامة في مصر في العصر العثماني لم يتمكنوا من التغلغل في الحياة المصرية ودراسة وافية . وأهمية كتب الرحالة كمصدر أساسي في تاريخ مصر لم تبدأ إلا بالقرن التاسع عشر بكتاب E.W. Lane [ عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ] .

والنوع الثاني من كتابات المعاصرين للعصر العثماني ما كتبه المصريون أنفسهم . وهذه المراجع ذات أهمية كبرى في عملية بناء التاريخ العثماني لأنها تصور الأوضاع من الزاوية المصرية وهي المراجع التي تعالج تاريخ هذه الفترة بطريقة مباشرة ولذلك تبدو أهمية حصر هذه المصادر وجمعها ونشرها من أهم الخطوات التي يمكن أن تخدم تاريخ مصر في العصر العثماني .

أسباب تدهور علم التاريخ في العصر العثماني :

نلاحظ حول المراجع التاريخية المصرية المعاصرة للعهد العثماني : أولاً أن أغلبها لم ير النور بعد ، فهي لازالت مخطوطة ومبعثرة في المكتبات الشرقية والأوربية والمرجع في حصر هذه المخطوطات كتاب بروكلمان [ تاريخ

(1) M. Anis. British travellers, impressions on Egypt in the late 18th century. Bulletin of the Faculty of arts. Cairo University dec 1951.

الأدب العربي ] وإن كان بروكلمان قد فاتته ذكر بعض هذه المخطوطات (١) . والسبب في بقاء أغلب هذه المراجع مخطوطة ما سبق أن ذكرناه من إهمال المؤرخين لهذه الفترة التاريخية .

ثانياً — رغم الحقيقة السابقة فالمصادر التاريخية المعاصرة قليلة إذا قورنت بالعصر المملوكي مما يؤكد تدهور علم التاريخ في العصر العثماني — فما هي الأسباب التي أدت إلى هذا التدهور : —

١ — في مقدمة هذه الأسباب تسرب الكتب التاريخية من مصر . والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي الذي ينتمي إلى أواخر العصر العثماني يؤكد هذا السبب (٢) . فبعد أن عدد كتب التاريخ التي يعرفها يقول [ وهذه صارت أسماء من غير مسميات . فإننا لم نر من ذلك كله إلا بعض اجزاء مدشته بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدي الصحافيين وباعها القوذة والمباشرون ونقلت إلى بلاد المغرب (٣) والسودان ] .

٢ — كذلك أدت كثرة الفتن في العصر العثماني والنزاع بين الفرق العثمانية والبيوتات المملوكية إلى إتلاف الكثير من المكتبات ، وفي ذلك يقول الجبرتي عند حديثه عن تدهور التاريخ في عصره [ ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب وأخذ الفرنسيين ما وجدوا إلى بلادهم . ولما عزمت على جمع ما كنت سودته وأردت أن أصله بشيء قبله فلم أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب مختلفة التهذيب والترتيب وقد اعتراها النقص في مواضع من خلال بعض الوقائع . وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع ولكنه على نسق في الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبي عبد الغني مبتدئا فيه

(١) على سبيل المثال مخطوط عبد الغني شلبي . لم يذكرها بروكلمان وهي في مكتبة جامعة ييل بأمریکا .

(٢) عجائب الآثار ج ١ ص ٦ .

(٣) يلاحظ مما ورد في بروكلمان وفهرس مخطوطات جامعة الدولة العربية أن عددا كبيرا من مخطوطات هذا البلد موجود بمكتبة الجزائر .

Les Voyageurs et ecrivains Francaises en l'egypte وهذه الدراسة تتناول الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر في القرن التاسع عشر وما قبله وإن كان يكاد يقتصر في دراسته على الفترة السابقة للقرن التاسع عشر على عدد محدود من هؤلاء الرحالة. أما Clement فقد عني بدراسة الرحالة الفرنسيين في مصر في القرنين السادس عشر والسابع عشر وذلك في كتابه Les Francais d'Egypte au XVI et XVII siecles ولذلك تعتبر دراسة كلينت متكاملة لما فعله كاريه .

أما بالنسبة للرحالة الإنجليز فلم تظهر دراسة كاملة لهم في العهد العثماني وإن كان كاتب هذه السطور قد حاول دراسة مجموعة منهم من الذين زاروا مصر في النصف الثامن من القرن الثامن عشر (١) .

ويلاحظ حول هذا النوع من المصادر بالذات رغم أهميته أنه يجب يؤخذ بحذر شديد. فالأوروبيون بسبب الأوضاع العامة في مصر في العصر العثماني لم يتمكنوا من التغلغل في الحياة المصرية ودراساتها دراسة وافية . وأهمية كتب الرحالة كمصدر أساسي في تاريخ مصر لم تبدأ إلا بالقرن التاسع عشر بكتاب E.W. lane [ عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ] .

والنوع الثاني من كتابات المعاصرين للعصر العثماني ما كتبه المصريون أنفسهم . وهذه المراجع ذات أهمية كبرى في عملية بناء التاريخ العثماني لأنها تصور الأوضاع من الزاوية المصرية وهي المراجع التي تعالج تاريخ هذه الفترة بطريقة مباشرة ولذلك تبدو أهمية حصر هذه المصادر وجمعها ونشرها من أهم الخطوات التي يمكن أن تخدم تاريخ مصر في العصر العثماني .

#### أسباب تدهور علم التاريخ في العصر العثماني :

نلاحظ حول المراجع التاريخية المصرية المعاصرة للعهد العثماني : أولاً أن أغلبها لم ير النور بعد ، فهي لازالت مخطوطة ومبعثرة في المكتبات الشرقية والأوربية والمرجع في حصر هذه المخطوطات كتاب بروكلمان [ تاريخ

(1) M. Anis. British travellers, impressions on Egypt in the late 18 th century. Bulletin of the Faculty of arts. Cairo University dec 1951.

الأدب العربي ] وإن كان بروكلمان قد فاته ذكر بعض هذه المخطوطات (١) . والسبب في بقاء أغلب هذه المراجع مخطوطة ما سبق أن ذكرناه من إهمال المؤرخين لهذه الفترة التاريخية .

ثانياً — رغم الحقيقة السابقة فالمصادر التاريخية المعاصرة قليلة إذا قورنت بالعصر المملوكي مما يؤكد تدهور علم التاريخ في العصر العثماني — فما هي الأسباب التي أدت إلى هذا التدهور : —

١ — في مقدمة هذه الأسباب تسرب الكتب التاريخية من مصر . والمؤرخ عبد الرحمن الجبرتي الذي ينتمي إلى أواخر العصر العثماني يؤكد هذا السبب (٢) . فبعد أن عدد كتب التاريخ التي يعرفها يقول [ وهذه صارت أسماء من غير مسميات . فإننا لم نر من ذلك كله إلا بعض أجزاء مدشته بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف بالمدارس مما تداولته أيدي الصحفيين وباعها القوة والمباشرون ونقلت إلى بلاد المغرب (٣) والسودان ] .

٢ — كذلك أدت كثرة الفتن في العصر العثماني والنزاع بين الفرق العثمانية والبيوتات المملوكية إلى إتلاف الكثير من المكتبات ، وفي ذلك يقول الجبرتي عند حديثه عن تدهور التاريخ في عصره [ ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب وأخذ الفرنسيين ما وجدوا إلى بلادهم . ولما عزم على جمع ما كنت سودته وأردت أن أصله بشيء قبله فلم أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كراريس سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب مختلفة التهذيب والترتيب وقد اعتراها النقص في مواضع من خلال بعض الوقائع . وكنت قد ظفرت بتاريخ من تلك الفروع ولكنه على نسق في الجملة مطبوع لشخص يقال له أحمد جلبي عبد الغني مبتدئاً فيه

(١) على سبيل المثال مخطوط عبد الغني شلبي . لم يذكرها بروكلمان وهي في مكتبة جامعة بيل بأمریکا .

(٢) عجائب الآثار ج ١ ص ٦ .

(٣) يلاحظ مما ورد في بروكلمان وفهرس مخطوطات جامعة الدولة العربية أن عدداً كبيراً من مخطوطات هذا البلد موجود بمكتبة الجزائر .

من وقت تملك بنى عثمانى للديار المصرية وينتهى كغيره من ذكرناه إلى خمسين ومائة وألف هجرية . ثم أن ذلك الكتاب استعاره بعض الأصحاب وزلت به القدم ووقع في صندوق العدم ومن ذلك الوقت إلى وقتنا هذا لم يتقيد أحد بتقيد ولم يسطر في هذا الشأن شيئاً يفيد فرجعنا إلى النقل من أفواه الشيخة المسنين وصكول دفاتر الكتبة والمباشرين وما انتقش على حجار ترب المقبورين ) .

والحقيقة أن الجبرتي أخطأ في اعتقاده في أنه ليس هناك تاريخ ما بين أحمد عبد الغنى شلبي أى من ١١٥٠ هـ حتى عصر الجبرتي نفسه ، ومع ذلك فاضطرار الجبرتي إلى الاعتماد على دفاتر الكتبة والمباشرين إلى غير ذلك دليل على ندرة المراجع التاريخية أو اختفائها في عصره .

٣ - يشير الجبرتي في موضع آخر إلى سبب ثالث لتدهور علم التاريخ (١) في ذلك الوقت وهو عدم اهتمام العصر بكتابة ودراسة التاريخ ونظرتهم الهابطة إلى هذا النوع من المعرفة . قال [ ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الإنساني تعنى بتدوينه سلفاً عن سلف وخلفاً من بعد خلف إلى أن نبذه أهل عصرنا وأغفلوه وتركوه وأهملوه وعدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين ولعمري أنهم لمعدورون وبالأمم مشغولون ولا يرضون لأقلامهم المتعبة في مثل هذه هذه المتعبة . فإن الزمان قد انعكست أحواله وانخرمت قواعده في الحساب فلا تضبط وقائمه في دفتر ولا كتاب واشغال الوقت في غير فائدة ضياع وما مضى وفات ليس له استرجاع إلا أن يكون من مثل الحقير منزوي في زوايا الخول والإهمال منجمعا عما شغلوا به من الأشغال فيشغل نفسه في أوقات من خلواته ويسلى وحدته بين سيئات الدهر وحسناته ] ولم يكن الجبرتي وحده يشكو من ذلك . فهناك مؤرخ في الشام وهو المرادى صاحب كتاب سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر كان يشكو من ظاهرة تدهور علم التاريخ فيقول

عند زيارة له للأستانة [ ثم جرى ذكر التاريخ وفقدانه في هذا الوقت وعدم الرغبة إليه من أبناء الدهر مع أنه المادة العظمى في الفنون كلها ] (١) .

٤ - غير أن هناك سبباً آخر وهو أن تدهور التاريخ كان يعكس في الحقيقة تدهوراً عاماً في الحياة العلمية ولا سيما فيما يسمى بالعلوم العقلية . ويجرنا هذا الموضوع إلى أن نعرض سريعاً لخصائص الحياة العلمية في العصر العثماني .

كان الحكم العثماني يقوم في مصر - وفي أغلب الولايات - على قاعدة بقاء الأوضاع بصفة إجمالية على ما كانت عليه قبل الفتح العثماني لذلك ورثت مصر العثمانية أغلب مظاهر الحياة من العصر السابق لدخول العثمانيين سواء في نظم الحكم الإدارية أو المالية أو في تركيب المجتمع نفسه : فالحكم العثماني حكم أقطاعي ضعيف لم يحدث تغييراً جذرياً في حياة المجتمع المصري رغم بقاءه ما يقرب من ثلاثة قرون . هذه الحقيقة إلى جانب العزلة التي فرضت على المجتمع المصري سواء من قبل العثمانيين أو بسبب تحول طرق التجارة العالمية عن الشرق الأوسط إلى الطريق حول إفريقيا ، كل هذا جعل من مصر - بل من منطقة الشرق العربي عامة - منطقة راكدة لم تتأثر بالتيارات الحضارية التي كانت تجتاح أوروبا من عصر النهضة الإيطالية حتى الثورة الفرنسية .

وإذا كان الحكم العثماني بطريق مباشر أو غير مباشر ، بفعل العثمانيين أو بسبب الظروف الدولية التي أحاطت بالفتح العثماني لمصر قد أدى إلى تدهور مصر سياسياً واقتصادياً وإلى حد أثر هذا الفتح في الحياة الفكرية والعلمية في مصر؟ الحقيقة أن التأثير العثماني في هذا المجال ضعيف لا يكاد يذكر . والسبب الرئيسي لذلك ما ذكرناه من شكل الحكم العثماني؛ فالدولة العثمانية كدولة اقطاعية من نوع معين كانت ترى أن وظائف الدولة تنحصر في حدود معينة كجمع الضرائب والدفاع عن البلاد والمحافظة على الأمن في الداخل . وما عدا ذلك ما يدخل في مفهومنا الحديث

لاخص خصائص الدولة كالإشراف على الحياة الاقتصادية والتعليمية والصحية لم يكن له وجود في تقدير الدولة ، لذلك احتفظ المجتمع بتركيبه السابق على الفتح العثماني ، مجتمع سمته الأساسية الطائفية ، فهو مقسم إلى طوائف تقوم كل طائفة برعاية مصالحها فيما بينها وبذلك أرتفعت يد الدولة عن الجماعات المشكلة للمجتمع وتحددت العلاقة بين هذه الطوائف والدولة في حدود ضيقة للغاية — وهكذا استطاعت المؤسسات العلمية أن تعمل بعيدة عن الدولة ، فلم تتأثر أو قل تأثرت قليلا بالتدهور السياسي والاقتصادي الذي اجتاحت العصر العثماني .

وقد ساعد على سلبية الحكم العثماني في المجتمعات العلمية أن العثمانيين لم يكن لهم رصيد حضارى ليقدّموه للحياة العلمية في مصر — فلم يتعلم المصريون اللغة التركية ولم يدخلوا اللغة التركية في الكتابات ، وأما التعليم في الأزهر والمدارس التابعة له فقد كان من الطبيعي أن تكون دراسة الفقه والحديث مستندة على مصادرها الأصلية العربية — حقيقة أن الأتراك عملوا في نطاق الشرق العربي على دعم السنة وتقوية هذا المذهب ومحاربة التيارات الشيعية ، ولكن هذا الموقف كان له شأنه في التوازن بين الشيعة والسنة في العراق أو الشام ولم يتأثر المجتمع المصري بهذه السياسة لأنه كان بعيداً عن هذا التطاحن المذهبي الديني . وحقيقة أن الأتراك عملوا كذلك على رفع شأن المذهب الحنفي ، على أنه لا يجوز المبالغة في هذا الأمر أيضاً ، فقد احترم الأتراك المذهب الشافعي ، وهو المذهب الغالب في مصر في ذلك الوقت ، فنصب مشيخة الأزهر طوال العهد العثماني ظلت في الشافعية .

طبيعة الحكم العثماني اللامركزي ، وطبيعة تكوين المجتمع المصري في العهد العثماني من أهم الأسباب التي ساعدت على بقاء الحياة العلمية والمؤسسات العلمية بصفة إجمالية كما كانت في العصر السابق للعثمانيين — وثمة سبب آخر على جانب كبير من الأهمية في هذا الوقت ألا وهو بقاء نظام الأوقاف المحبوسة على معاهد التعليم والعلماء .

لكل هذه الأسباب ظل المجتمع المصري في العهد العثماني يحتفظ بالكثير من التقاليد الأخلاقية والعلمية . في مقدمة هذه التقاليد نفوذ العلماء لدى السلطات الحاكمة التركية والمملوكية وأقبال هذه السلطات على تشجيع العلماء من رصد أوقاف معينة على بعض المعاهد وحضور الكثير من الأمراء والمماليك دروس العلماء في المدارس والمجالس الخاصة ومنحهم الهدايا والمنح للعلماء من وقت لآخر ، كما شارك البسكوات المماليك الأثرياء من المصريين في هذا المضمار . كذلك كان السلطان العثماني يهدي رجال الأزهر الكثير من الهدايا أو يأمر بمرتبات تصرف من الضربخانة . وكان يجارى السلطان العثماني في ذلك سلطان المغرب ولا سيما السلطان محمد في القرن الثامن عشر . ومن هذه التقاليد الإسلامية العلمية السعي في سبيل الحصول على العلم ، فالعالم الحق هو الذي يقضى حياته كلها يتلقى العالم من غيره في مناورة وجد وبدافع حب العلم لذاته . فمن الحقائق المعروفة أن غالبية العلماء في ذلك العصر لم يكونوا يعيشون على دخلهم من العلم باستثناء أساتذة الأروقة في الأزهر ، بل كان أغلب العلماء يشتغلون بحرفة يكتسبون منها — وكان العالم يتجشم الصعاب والسفر في طلب العلم لذلك كانت العلاقات وثيقة بين العلماء العرب ، وتاريخ الجبرتي حافل بتراجم لعلماء من مختلف أنحاء العالم العربي من الذين استقروا في مصر وإن كانت ظاهرة الترحال في سبيل العلم أكثر شيوعاً بين علماء الشام — وكان من عادة العلماء في ذلك العصر أنه إذا سافر أحد العلماء فإنه ينزل في منزل زميل له أو بإحدى المدارس التي يدرس بها هذا الزميل . كذلك كان من عادات هذا العهد النصاق الطالب بأستاذه فيلزمه ملازمة كلية أو كما كانوا يقولون (لازمه حساً ومعنى) . وقد أشار الجبرتي إلى والده الشيخ حسن الجبرتي ، الذي يمكن اتخاذه نموذجاً للحياة العلمية في هذا العصر ، فقال ( وإذا أتاه طالب فرح به وأقبل عليه ورغبه وأكرمه خصوصاً إذ كان غريباً وربما دعاه للجاورة عنده وصار من جملة عياله — ومنهم من أقام عشرين عاماً قياماً ونياماً لا يتكلف إلى شيء من أمر معاشه حتى غسيل ثيابه من غير تعب ولا ضجر) . هذه الروح المتفانية في العلم كانت جانباً من التقاليد الإسلامية التي

عرفتها المجتمعات الإسلامية في العصور الوسطى وبقيت في العصر العثماني وكان يدفع إليها بطبيعة الحال أن العلم في ذلك الوقت كان دينياً بصفة أساسية ؛ فتشجيع العلم والثقافة مظهر من مظاهر التقوى والورع . لهذا يمكن القول بأن الحياة العلمية لم تمتد إليها يد التالف كما امتدت إلى الحياة السياسية والإقتصادية ، والعلم كان يؤدي وظيفة اجتماعية في المحافظة على كيان المجتمع الإسلامي في مصر من التدهور الذي تعرض له المجتمع .

والأمر الواضح أن هذه الحياة العلمية لم يكن انكشافها وتضاؤلها بالقياس إلى عدد المدارس والمدرسين والأوقاف المحبوسة على المؤسسات العلمية ولكن بسبب تدهور المستوى العلمي نفسه . والقياس هنا ليس بالنسبة للعصر اللاحق للعهد العثماني أي في الحملة الفرنسية وعهد محمد علي ولكن بالنسبة للعهد السابق للعصر العثماني أي العصر المملوكي . ذلك أنه قد شاع خطأ بين بحاث التاريخ المصري أن الحياة العلمية قد تدهورت في العصر العثماني حتى بدأت حركة بعث وأحياء على أساس الأخذ من العرب منذ مطلع القرن التاسع عشر . والأمر بعكس ذلك تماماً ، فإذا كان القرن الثامن عشر قد أخرج مؤرخاً مثل عبد الرحمن الجبرتي ، فمن المؤكد أن النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يعرف على الإطلاق تأليفاً مبتكراً في التاريخ . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى تغير اتجاه المجتمع في حياته الفكرية ، ففي الوقت الذي تدهور فيه الأزهر في مطلع القرن التاسع عشر ، لم تكن معالم الاتجاهات الجديدة الوافدة من الغرب قد تبلورت بعد .

ولا شك في أن العصر السابق للعصر العثماني كان عصر الأشراق الفكري في تاريخ المجتمع الإسلامي كله بعد سقوط بغداد في يدا المغول وخروج المسلمين من الأندلس . غير أن الحياة الفكرية في مصر تعرضت لأزمة في نهاية العصر المملوكي قبل دخول العثمانيين . فخلدت هذه الحركة إلى الركود وفقدت روح الإبداع والتجديد ثم جاء الفتح العثماني فلم يولد لدى المثقفين ردود فعل انتاجية خصبة ، وهكذا مالت الحياة الفكرية من ذكود إلى ركود — لم

يضرِب العثمانيون نطاقاً غليظاً على الفكر والتعليم في مصر وأغلقوا المدارس ووقفوا سداً منيعاً في وجه الابتكار والتأليف ، بل إنهم على العكس من ذلك تركوا — كما رأينا — الحياة التعليمية في مصر تسير في مجراها الطبيعي فأبقوا المدارس وأوقافها وفتحوا مدارس جديدة لرفع المستوى العلمي والديني — فالاختلال العثماني ليس وحده المسئول عن ضعف الحياة الفكرية وإنما النقلة والمحافظة وانكماش روح الابتكار والخلق هي السبب وراء هذا الانكماش الفكري . وكان من مظاهر ضعف الحياة الفكرية انتشار الطرق الصوفية وزحف التصوف على الحياة العقلية بل والحياة الاجتماعية . ثم انحط التصوف من فلسفة إلى دروشة وكان بعض العلماء أنفسهم قد آمنوا بالأولياء بل أن بعضهم كان مرشحاً لهذه المرتبة ، وهكذا انحط مستواهم الفكري إلى مستوى العامة من الاعتماد على قراءة أدب الكرامات والطقوس الصوفية . ومن مظاهر ضعف الحياة العلمية أيضاً في العصر العثماني التركيز بصفة مطلقة على علوم الدين دون علوم الدنيا . ولا شك في أن للعثمانيين دخلاً في هذا الموقف ، فقد عملوا على تشجيع هذا التيار تدعيماً للإسلام والسنة خاصة . ونتج عن ذلك اهمال تام للعلوم العقلية أو الدنيوية ومنها التاريخ .

ونخلص من هذا كله إلى الحقائق التالية : —

أولاً : إن التدهور العلمي في العصر العثماني كان من ناحية الكيف والمستوى لا ناحية الكم .

ثانياً : إن تدهور المستوى العلمي كان قد بدأ قبل نزول العثمانيين بمصر وأن العلم والمعاهد في مصر في العصر العثماني كانت تؤدي وظيفة اجتماعية أكثر منها علمية أو ثقافية .

ثالثاً : إن تدهور علم التاريخ يرجع إلى تدهور المستوى العلمي العام وبالنسبة لعلوم الدنيا أو العلوم العقلية بالذات .

رابعاً : إن نقل الكتب التاريخية إلى استنبول بعيد الفتح العثماني مباشرة إلى جانب تسرب هذه الكتب تدريجياً إلى أوروبا وشمال أفريقيا والسودان

ثم تلتف مكتبات المدارس والجوامع لإبان الفتن ونتيجة للاهمال ، كل ذلك كان من شأنه تدهور علم التاريخ في ذلك العصر .

ومع هذا كله فالصورة التي قدمها الجبرتي عن موقف الدراسات التاريخية في مصر مبالغ فيها إلى حد بعيد . فمن الواضح أنه لم تكن لدى الجبرتي صورة كاملة عن التأليف التاريخي السابق له وخصوصاً بالنسبة للقرنين العاشر والحادي عشر الهجريين أي قبل ١١٠٠ هـ وهي السنة التي يفتتح بها تاريخه .

\* \* \*

ونستطيع أن نقسم مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني إلى ثلاثة أقسام :  
أولاً : مجموعة المؤرخين من العلماء الذين ظلوا أو حاولوا — سواء من ناحية فهمهم للتاريخ أو طريقة كتابته — متأثرين بمدرسة التاريخ للإسلامي ، يمثل هؤلاء في القرن العاشر الهجري كل من ابن أبي السمر وأحمد شلبي عبد الغني وفي القرن الحادي عشر كل من الإسحاق وابن أبي السمر البكري الصديقي ، ويمثلهم في القرن الثاني عشر عبد الرحمن الجبرتي وعبد الله الشرفاوي .

ثانياً : مدرسة التراجم — وهذه ليست جديدة على التاريخ المصري السابق للعهد العثماني ولكنها نشطت في العصر العثماني بشكل واضح — وفي القرن العاشر برز العيني وفي القرن الحادي عشر الحبي ثم الزبيدي والجبرتي في القرن الثاني عشر .

ثالثاً : مدرسة الأجناد . وهذه تبتعد كثيراً عن مدرسة العلماء في فهمها للتاريخ أو طريقة كتابتها ، فهي تفتقر إلى أية خطة في البحث والكتابة وأميل إلى طريقة الكتابة الشعبية وإن قدمت مادة تاريخية فريدة في أهميتها ، ويمثلها ابن زمبل الرمال في القرن العاشر ثم الدمرداش كيتخدا عزبان ومصطفى ابن الحاج إبراهيم في القرن الحادي عشر .

أولاً : مدرسة المؤرخين التقليديين :  
ابن أبياس — الإسحاق — أبو السرور البكري — عبد الرحمن الجبرتي .  
عبد الله الشرفاوي .

افتتح العصر العثماني بمؤرخ كبير هو ابن أبياس واختتم بمؤرخ كبير أيضاً هو الجبرتي — وابن أبياس ينتمي في نظر مؤرخي العصر المملوكي إلى العصر المملوكي أكثر من انتمائه إلى العصر العثماني ولذلك وضعه الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة في عداد مؤرخي القرن الخامس عشر على الرغم من أنه مات في سنة ١٥٢٤ أي بعد الفتح العثماني بثمان سنوات . شاهد وأرخ للفتح العثماني وللتنظيمات العثمانية الأولى في مصر — ويمكن الرجوع في دراسة ابن أبياس إلى ما كتبه الدكتور زيادة (١) ، وإلى ما كتبه المؤرخ البريطاني مارجوليوت ( محاضرات في المؤرخين العرب ) .

وقد عالج ابن أبياس الفتح العثماني والتنظيمات العثمانية الأولى في كتابه ( بدائع الزهور في وقائع الدهور ) — ولم يكن ابن أبياس من المؤيدين للسادة الجدد ولذلك تلمس في حديثه عن الفتح العثماني وسياسة العثمانيين في مصر الكثير من التحقير والنقد اللاذع — غير أن أمانة ابن أبياس العلمية ودقته فوق مستوى الشبهات ، فهو لا يزال المرجع الأول حول فترة الفتح العثماني .

ولكن ابن أبياس يقف عند بداية العصر العثماني لذلك لا تصور كتاباته تحول المجتمع المصري من العصر المملوكي إلى العصر العثماني — والواقع أن المراجع فقيرة في هذه الناحية بالذات وحول هذا الموضوع بصفة خاصة . وما لدينا بعد ذلك يدخل في القرن الحادي عشر الهجري .

وإذا كانت مراجع القرن الحادي عشر تتناول المجتمع المصري وقد أصبح عثمانياً فإن أهميتها تأتي في أنها تصور الموقف داخل المجتمع المصري — العثماني في ذلك القرن ، في أوله انهيار النظام العثماني وتدهور الباشوية المصرية

(١) المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي .

لحساب الأوجاقات العثمانية ثم حوالى منتصفه فى تدهور الأوجاقات بدورها وبداية ظهور سيطرة البكوات المماليك .

\* \* \*

وفى مقدمة المؤرخين الذين تناولوا القرن الحادى عشر اثنان هما الاسحاق وابن أبى السرور البكرى الصديق — والإسحاق هو محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى ابن على الإسحاق المنوفى الشافعى . ذكر الحجى فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر بأنه كان أديباً وشاعراً ، قرأ ببلده على شيوخ كثيرين وكان يتردد إلى القاهرة وحضر على عدد كبير من علمائها وتوفى فى عام ١٠٦٠ هـ (١) .

وفى عام ١٠٣٣ هـ فرغ من كتابه ( لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ) ويعرف بتاريخ الإسحاق .

وقد قسم الإسحاق كتابه هذا إلى مقدمة عن فضائل مصر وذكرها فى كتاب الله وما ورد عنها من أحاديث سيد المرسلين ، ثم يبدأ فى تناوله تاريخ مصر منذ أيام الخلفاء الراشدين والدول التى مرت عليها ، ويشق طريقاً طويلاً فى ذلك حتى ينحصر نصيب مصر فى العصر العثمانى فى الفصلين التاسع والعاشر .

وفى عرضه لهذا التاريخ المصرى فى العصر العثمانى يبدأ الإسحاق أولاً بالكلام عن كل سلطان من السلاطين العثمانيين فى عرض سريع ثم يفصل فى الكلام عن كل نائب أو والى من الذين حكموا فى العصر العثمانى فيذكر تاريخ تعيين وعزل كل باشا بدقة واضحة وأهم الأعمال التى تمت فى عهده حتى ينتهى عند سنة ١٠٣٢ هـ آخر تولى إبراهيم باشا السلحدار .

ويتميز الإسحاق بميزتين إلى جانب ما ذكرت : أولاً اهتمامه الواضح بأسعار الحاجيات بين وقت وآخر ولهذا أهميته فى دراسة الأحوال الاقتصادية

فى ذلك الوقت — ثانياً : رغم أنه من رجال العلم وبعيد نسبياً عن حوادث الدولة إلا أنه يعطى صورة واضحة عن تدهور الباشوية المصرية .

أما المؤرخ الآخر الذى يمثل القرن الحادى عشر والمعاصر للإسحاق فهو السيد محمد بن السيد محمد أبى السرور البكرى الصديق الشافعى المصرى المعروف بابن أبى السرور — والمعلومات التى لدينا عن هذا المؤرخ قليلة للغاية : فهو توفى فى سنة ١٠٨٧ هـ . إنما يبدو أن ابن أبى السرور المؤرخ نشأ فى بيئة علمية من ناحية وواسعة النفوذ من ناحية أخرى وأن البيئة الخاصة التى عاش فيها ابن أبى السرور مكنته من أن يكون أكثر إلماماً بأحداث عصره من الإسحاق . فقد ذكر الصديق فى كتابه ( النزهة الزهية ) عند كلامه عن محمد باشا الذى تولى سنة ١٠٠٤ هـ ( وعمر المشهد الحسينى وزينه وتقيده بأمره وأتقنه ودرس فيه والذى بحضرته فخرج متعجباً من هذا الدرس وبهجته (١) ) .

أما عن غنى الأسرة وجاهاها فقد ذكر فى حديثه عن محمد باشا أيضاً ( وقد جعل لى والدى فى أيامه فرحاً كان نادرة الزمان وفريداً فى الحسن والاتقان ، أبذل فيه أموالاً كثيرة وتحمل فيه بتجملات غزيرة ، أصرف فيه من النقد نحواً من خمسة آلاف دينار ومن الأقمشة وغيرها ما يزيد عن هذا القدر ، ونزل فيه البكر بك المذكور (٢) وذلك بمنزل والدى شيخ الإسلام أبى السرور المطلق على بركة الرطل المعروف بالشادروان . . فكانت مدة الفرح أربعين يوماً لم يذق فيها غالب أهل مصر يوماً مع الوتدات الوافرة ببركة الرطل (٣) وربما نفهم من حديثه عن أبيه أنه كان شيخاً للجامع الأزهر ، فشيخ الجامع الأزهر كان يلقب بشيخ الإسلام ، إلى جانب كونه شافعيًا ، وما يؤكد أن والده كان شيخاً للأزهر ما ذكره المؤرخ فى حديثه عن خضر باشا ، قال

١ — ص ٣١ — النزهة الزهية .

٢ — أى الباشا العثمانى .

٣ — ص ٣١ النزهة الزهية .

[وكان يغلب عليه الشغ الزايد وشرع في قطع أرزاق العلماء من القمح، فطلع له والدي رحمه الله وكلمه في ذلك وأنكاه بالسكلام، فقال للوالد يامولانا هذا الغالب على الذين لهم القمح تجار وليس فيهم علماء، فقال له الوالد يامولانا الوزير نحن نكتب لكم دقراً بأسماء العلماء الذين لهم القمح فأجاب الوزير إلى ذلك وأمر المقاطعجي بالذهاب إلى منزل الوالد في غير أيام الديوان للنظر في هذه القضية ثم لم يزل الوالد رحمه الله يتلطف بالوزير إلى أن أجاز الإعطاء الخاص والعام (١) .]

ويتضح من هذا أن ابن أبي السرور نشأ في بيئة علمية ذات ثراء وأن ذلك كان له الفضل في أن المؤرخ كان على صلة بمجريات الأمور ولذلك جاءت كتاباته أكثر فيها لتطور الأحداث السياسية من الاستحقاق .

ولانتزال مؤلفات هذا المؤرخ كلها غير منشورة الآن على كثرتها (٢) . وفي مقدمة هذه الكتب كتاب ( عيون الأخبار ونزهة الأبصار ) وهو التاريخ الكبير لهذا العالم ابتداء من الخليقة إلى دولة الجراكسة ، ورتبه على تسعة عشر مقصداً : في شرف علم التاريخ واختلاف الناس فيه مقدار الزمان ، وفيمن سكن الأرض قبل آدم وقصة آدم وذكر ملوك الفرس واليونانيين والروم وفي سيرة <sup>عليه السلام</sup> والخلفاء الراشدين بعده وسلاطين دولة بني أمية والعباسيين وبني أمية في الأندلس والدولة الديلمية والفاطمية والسلجوقية والأيوبية والتركمانية . . . إلى آخر دولة الجراكسة . فالكتاب كما هو واضح لا يقتصر على تاريخ مصر بل يشمل تاريخ الدول الإسلامية بشكل عام ، فهو بحث في التاريخ الإسلامي العام .

أما بالنسبة لتاريخ مصر في العصر العثماني وهو ما يدخل في مجال دراستنا هذه، فقد كتب ابن أبي السرور البكري [النزهة الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية] وهو بحث مختصر في ذكر خلفاء وملوك مصر ونوابهم

١ — من ٣٤ . النزهة الزهية .

٢ — يقوم كاتب هذه السطور بنشر كتابه ( النزهة الزهية ) في إطار مشروع لجنة نشر مخطوطات مصر العثمانية المشكلة من : الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى وكاتب هذه السطور .

منذ أقدم العصور إلى دولة السلطان مراد ابن السلطان أحمد في سنة ١٠٤٢ هـ ثم يختم الكتاب بفصل عن [ خصوصيات مصر وعجائبها ومنتزهاتها وما قيل فيها نظماً وشعراً . ]

كذلك كتب هذا المؤرخ فيما يتعلق بمصر العثمانية بحثاً منفرداً عن حوادث مقتل إبراهيم باشا في سنة ١٠١٢ هـ على يد أجناد الأوجاقات والمعارك التي دارت بعد ذلك بين الباشا الجديد محمد باشا الكرجي الخادم والأوجاقات حتى تصفية ثورة الأوجاقات وسمى بحثه هذا [ تفريج الكربة في دفع الطلبة ] ولم نعر على هذا البحث حتى الآن .

والمؤلف التاريخي الرابع للصدقي هو ( المنح الرحمانية في تاريخ الدولة العثمانية ) ويبدو أنه كتب هذا الكتاب بعد عيون الأخبار وبشكل من بعض ( الفضلاء الأئمة النبلاء ) . وقد بدأ الكتاب بتاريخ الدولة العثمانية منذ أيام عثمان حتى إذا وصل في الباب التاسع إلى السلطان سليم أخذ يذكر ولاية مصر الذين حكموا في عهد كل سلطان ابتداء من سليم — ولما كانت النسخة الوحيدة الموجودة بدار الكتب تنتهي عند عام ١٠٢٩ هـ ولما كنا نعلم — حسبما ذكر هو في مقدمة كتابه — أنه كتبه بعد تأليفه لعيون الأخبار الذي انتهى به إلى زمن السلطان مراد سنة ١٠٤٢ هـ ، فلا بد أن للكتاب أجزاء أخرى مفقودة ليست في متناول يدينا .

على أنه من الواضح من ناحية أخرى أن حديثه عن ولاذ مصر في هذا الكتاب الذي يتناول تاريخ الدولة العثمانية لا يختلف في كثير أو قليل عما كتبه عن هؤلاء الولاة في كتابه النزهة الزهية . وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن ابن أبي السرور قد كتب ثلاثة كتب في التاريخ المصري تعتبر مكملة لبعضها البعض :

أولاً — عيون الأخبار ، في التاريخ الإسلامي العام مع التركيز على تاريخ مصر حتى نهاية عهد المماليك .

ثانياً — المنح الرحمانية في تاريخ الدولة العثمانية .  
ثالثاً — النزهة الزهية في تاريخ مصر تحت الحكم العثماني .

وينحصر اهتمامنا في هذا المجال بكتابه النزهة الزهية . أولاً — هناك النسخة الموجودة بدار الكتب المصرية وهي ناقصة في أولها — ولكن لدينا الآن نسختين كاملتين : نسخة مكتبة Rylands بمانشستر بإنجلترا ونسخة المتحف البريطاني بلندن . وينحصر ما كتبه الصديق عن مصر العثمانية من ص ٦٢ إلى ص ١٠٩ (من نسخة دار الكتب) ثانياً . يسير المؤرخ في الجزء الخاص بمصر العثمانية على طريقة واحدة ، إذ يذكر تولية كل باشا وتاريخ عزله وما دار في عصره من الأحداث — كما يعنى بذكر صفات الباشا وموقف المصريين منه — كل ذلك بتفصيل أكثر من الإسحاقى وفهم أكثر لأمور الباشوية فهو مثلاً يعنى بذكر أسماء الأوجاقات والوظائف العثمانية ثالثاً على أن أهم ما يقدمه الكتاب أسماء قضاة مصر وتاريخ تعيينهم وعزلهم ولذلك يعتبر هذا المرجع من المصادر النادرة في تاريخ القضاء في مصر في العصر العثماني .

رابعاً — وأخيراً يتميز الكاتب بأن فصله الأخير يتناول في حديث طويل النيل ومدن مصر ومنتزهاتها ومعجائبها فهذا الفصل عبارة عن دراسة للخطط المصرية في ذلك العصر .

ما هي أوجه الشبه والتباين بين الإسحاقى والصديق ؟

من الواضح أنهما ينتميان إلى مدرسة تاريخية واحدة . فكلاهما يبدأ تاريخه منذ أقدم العصور وليس في هذا بدع فهي الطريقة التي كان يسير عليها المؤرخون المصريون بصفة عامة مثل ابن أبياس والجبرتي .

ثم أن طريقة كتابتهما واحدة : الحوادث وفق عصر كل وال من الولاة العثمانيين . حقيقة أن أبي السرور يفصل أكثر ولكنه قياساً إلى الكتابات

التاريخية العربية يعتبر موجزاً ولذلك يمكن القول بأن كلا منهما يعطى الأبعاد فقط للتطور السياسي في العصر العثماني .

وكلاهما يتحدث عن نفسه وبعض تجاربه من خلال كتاباته ، فكتابتهما تجمع صفة المذكرات إلى جانب التاريخ وهذه أيضاً ظاهرة تجمع بين ابن أبياس والجبرتي .

وثمة ظاهرة مشتركة بين الرجلين وهي عنايتهما بذكر محاسن مصر وصفات أهلها وما ورد بشأنها في القرآن والحديث إلى جانب ذكر محاسنها ومعجائبها حتى ليخيل لدارسى التاريخ أن الشخصية المصرية كانت قد بدأت تتسكون في ذلك العصر .

غير أن من أهم ما يجمع بين هذين المؤرخين — مع غيرهما من المؤرخين اللاحقين والسابقين — نظرتهما إلى علم التاريخ . فالتاريخ فن وليس علم ؛ وهو فن تنبغى معرفته لما فيه من عنصر التشويق والعجائب والمستحدثات والفكاهات . على أن ذلك ليس الفائدة الأولى من التاريخ ، بل اكتساب تجربة الأولين في سبيل فهم أفضل للحياة ومشاكلها — يقول الإسحاقى ( فإنه لا يخفى على كل ذى ذوق سليم وفهم رائق مستقيم أن فن التاريخ من فاكهة المفاكهة بالغاية القصوى ونهاية الشأن في الطلاوة والجدوى لأنه توقع وقائع الزمان وتدوين الحوادث الدائر بها الدوران . . وألف مطالعته من ررق طبعاً وراق لباً ، يطلع الشاهد على ما كان من المعجائب غيباً ويودع السمع أسماء كان لرؤية أهلها محباً ) ويورد الإسحاقى بيتاً في هذا المعنى يقول :

فاتنى أن أرى الديار بعيني فلعلنى أرى الديار بسمعى

فإلى جانب الفكاهة بالغاية القصوى هناك التجربة الإنسانية التي يقدمها التاريخ .

ودفاع ابن أبي السرور في هذا المجال أكثر عمقا ووضوحاً . قال في المقصد الأول في شرف علم التاريخ ( أعلم أن شرف كل علم بقدر شرف موضوعه وفضيلته وهو أن يكون صحيحاً محيطاً بما تحته من المعاني وموضوع علم التاريخ ذكر ما كان في العالم فلذلك سار السبيل إلى معرفة ما يضر وما ينفع فيه ) (٢) — ثم يقسم هذا المؤرخ علم الأخبار إلى أقسام ثلاثة : —

أولاً ( أخبار أنبياء الله ورسله وسنتهم وأخبار العلماء والحكماء وسيرهم . وهذا عظيم المعنى وظاهر المنفعة فيما يصلح به الإنسان أمر معاده ودينه وسيرته في اعتقاده وسيرته في أمور الدين ثم ما يصلح أمر معاملاته ومعاشه الدنيوى ) .

وثانياً ( ويشمل أخبار الملوك وسياستهم وأسباب مبادئ الدول وسبب انقراضها وأخبار الوزراء والأمراء ) وما يتصل بذلك من الأحوال التى يتكرر وقوع مثلها أبداً فى العالم . وبوجه النظر هذه أى أن التاريخ يعيد نفسه يستنتج ابن أبي السرور أن هذا القسم ( غريز النفع جيد الفائدة فإن من عرفه واتقنه صار كأنه قد عاش الدهر كله وجرب الأمور بأسرها وباشر الأحوال بنفسه فكبر عقله وبصير مجرباً للأمور ) . والقسم الثالث يشتمل على ذوى المروءات والأجداد وأهل الوفا ومحاسن الأخلاق وأرباب الشجاعة ويقصد بذلك السير . ثم يقول ( وهذا القسم أيضاً عزيز النفع همة عالية وقريحته جيدة صافية فإن فى طباع من هو كذلك الارتياح لمكارم الأخلاق عند سماع أخبار الكرام ومحبة الاقتداء بذوى المروءات ليصير له نصيب من حسن الثناء وطيب الذكر ) .

ولنحاول أن نحدد المعالم الرئيسية فى هذا التفكير : لما كان التاريخ يعيد نفسه فإن من يقرأ التاريخ فإنه يعيش نفس التجربة كما أن فى قراءة التاريخ تهذيباً للخلق خصوصاً قراءة سير الصالحين من الحكام والقادة لذلك نرى

هذه النظرة بالذات تنعكس على موقف كل منها من الأحداث فالفكرة السائدة فى تاريخ الاسحاق والصديق هى أن الحاكم العادل لا يشتط فى ضرائبه على الرعية ويعمل على استتباب الأمن .

\* \* \*

رغم ما ذكرناه بالنسبة للاسحاق والصديق من أهمية كتاباتها بالنسبة للعصر العثمانى ولاسيما القرن الحادى عشر ، فإن الباحث يحس حين ينتقل من ابن آياس إلى الاسحاق والصديق أنه قد هبط هبوطاً شديداً . فالنظرة النافذة المتفحصة والمثابرة على جمع الحوادث وترتيبها والافاضة فى الكتابة كل هذا مما نلنسه فى ابن آياس يكاد يختفى تماماً فى القرن الحادى عشر وكان التقاليد التى عرقها صناعة التاريخ فى العصر المملوكى قد ضعفت ضعفاً شديداً ، وبدأت تتكون من جديد معالم مدرسة جديدة للتاريخ تتحس خطاها مرة أخرى . غير أن هذه الارهاصات المتخلفة تحطو فجأة خطوة كبيرة فى القرن الثانى عشر عند عبد الرحمن الجبرقى الذى يختتم هذا الفريق من المؤرخين فى العصر العثمانى .

ويبدو الجبرقى وسط مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى عملاقاً وأكثر من ذلك أن الكتب التاريخية الأخرى لهذا العصر تستمد أهميتها من وجود تاريخ الجبرقى نفسه فهى تعتبر مكملة لتاريخ الجبرقى ومن هذه الزاوية فقط تبدو لها بعض الأهمية — لذلك فلا محل فى الحقيقة لمقارنة الجبرقى بالمؤرخين المعاصرين له ، فالجبرقى يتميز عن كل هؤلاء بأنه يقدم صورة كاملة للمجتمع المصرى خلال العصر العثمانى ، والحق أن الجبرقى يعتبر أحد كبار المؤرخين فى العالم الإسلامى فى جميع أزمنته ، وبالتأكيد هو أعظم المؤرخين العرب فى الأزمنة الحديثة .

ويواجه باحث التاريخ مشكلة عويصة فى محاولة تفسير ظهور مؤرخ مثل عبد الرحمن الجبرقى فى العصر الذى عاش فيه ، فالمعقول ألا يظهر مؤرخ

مثل الجبرتي على الاطلاق في هذا العصر ، ذلك أن الجبرتي بالنظر إلى مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني ، يبدو وكأنه خرج من لا شيء ولا يرجع إلى شيء — فالجبرتي ظاهرة من هذه الظواهر التاريخية المعزولة تماماً عن عصرها فيما يتعلق بمدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني . ولم يمتد الجبرتي كظاهرة كذلك في الفترة التي تلتها . فحتى الآن لم يحاول أحد لادخال مصر ولا في خارجها في العالم العربي أن يسير على خطى هذا المؤرخ . وهذه الظاهرة ، ظهور عبقرية منفردة ، ومعزولة عن الوسط الذي عاشت فيه تبدو غريبة حقاً ليس فقط بالنسبة لتاريخ الحضارة الإسلامية ، بل بالنسبة لتاريخ البشرية .

وما يؤكد أن الجبرتي لم يخرج من مدرسة تاريخية معينة أولاً ( ضعف مدرسة التاريخ المصري بصفة عامة في العصر العثماني — هذا الضعف بدأ بعد ابن آياس ، والفترة الأولى من الحكم العثماني خلت تماماً من المؤرخين الذين كان في قدرتهم أن يقدموا صورة لتحول المجتمع المصري من مملوكي إلى عثماني أي في القرن العاشر ، والقرن الحادي عشر شاهد نهضة تاريخية أو حركة بعث في حدود ضيقة ولا سيما في التراجم ، ثم عاد الموقف إلى الركود زمن الجبرتي وقبله بقليل — وحتى حركة البعث والاحياء هذه كانت ضعيفة بالنسبة لمدرسة التاريخ المصري التقليدية في العصر المملوكي .

ثانياً ( إلى جانب هذا الضعف العام في مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني كانت عناية الجبرتي بالتاريخ الإسلامي والتاريخ المصري في العصور الوسطى ضعيفة أيضاً فمن المؤكد أن الجبرتي لم يطلع على كتابات المؤرخين في هذه الفترة ، بل حتى لم يطلع على كتابات الكثير من المؤرخين في العصر العثماني نفسه ، فهو لم يذكر سوى أحمد شاذلي عبد الغني الذي تناول تاريخ مصر من الفتح العثماني حتى ١١٥٠ هـ ، واعتمد الجبرتي عليه في الفترة السابقة للقرن الثاني عشر لأن الجبرتي بدأ تاريخه سنة ١١٠٠ هـ .

ما الذي يميز الجبرتي عن غيره من المؤرخين

أولاً — دقة الجبرتي — للجبرتي دقة المؤرخ واستقصائه للحوادث وتحفظه في ذكرها . فهو يقول في مستهل حديثه عن عام ١٢٢٥ هـ ( وانقضت السنة بحوادثها التي قصصت بعضها إذ لا يمكن استيفائها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف البقلة وزيادتهم ونقصهم في الرواية فلا أكتب حادثة حتى أتأكد صحتها بالتواتر والاشتهار وغالبها من الأمور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف ، وربما اختلفت في حادثة حتى اثبتها ويحدث غير ها وانساها فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محلها أن شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة ) ويقول في كلامه عن تراجم الامراء ( ج ١ ص ٩٣ ) ( ولم اخترع شيئاً من تلقاء نفسي والله مطلع على أمري وحدي ) .

ثانياً — الموضوعية — وموضوعية الجبرتي تبين من دقته وتبين كذلك من أنه يؤكد أنه يكتب للحقيقة والتاريخ — فهو يقول في مستهل كتابه ( ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مبالغ للاخلاق لميل نفسي أو غرض جسماني ) ولكن هذه الموضوعية لا تجعل من الجبرتي تاريخياً بارداً (١) — فكتاباته الجبرتي تفيض بالحياة الدافئة ، والسبب في ذلك أن الجبرتي يفعل بالأحداث انفعالا عميقاً — وأول ما يسترعى النظر لمن يقرأ الجبرتي حب الرجل لبلده التي شاركها في افراحها ومصائبها بكل قطرة فيه ، فهو يكتب عنها وكأنه يكتب بلحمه ودمه ، هذا أبرز ما في كتاب الجبرتي من أوله لآخره (٢) — حقيقة أنه مما يجعل تاريخ الجبرتي صورة زاهية جداً ، أن تاريخ مصر وتاريخ مصر في العصر العثماني بسبب ظروفها المحلية غني أكثر بكثير من تاريخ سوريا أو العراق في هذه الحقبة ، على أن هذه الحقيقة لا يجب أن تقلل من قدرة الجبرتي كمؤرخ ، فالقارئ للجبرتي يحس دائماً بأنه يضع يده على نبض الحياة وبأنه يعيش في الجو الحقيقي لمصر وللعصر — وقد ساعد على

(1) D. ayalon . Al-Jabarti. Bulletin of the school of Oriental Studies vol. XXIII Part II .

(2) I bid.

ذلك قدرة الجبرتي على الدخول مباشرة إلى قلب الموضوع ورسم صورة كاملة  
يضع ضربات من فرشته (١) . . . ثالثاً : ما هي على وجه الدقة الأهمية التاريخية للجبرتي — أن الجبرتي قد  
كتب عن عصور ثلاث ، مصر العثمانية ، والحلة الفرنسية ، وظهور محمد علي .  
وكتابات عن الحملة الفرنسية وظهور محمد علي هامة للتورخ ولكن يشارك الجبرتي  
في هذه الأهمية الكثير من المراجع الأجنبية ولا سيما بالنسبة للحملة الفرنسية  
ولعصر محمد علي . ربما يؤخذ على الجبرتي كتاباته التي حمل فيها على محمد علي  
دون فهم واع لطبيعة حركة محمد علي وأعماله ولكن مع ذلك فأهمية الجبرتي  
إنما تعطى الصورة الثانية لعصر محمد علي ، على اعتبار أن ما كتبه المؤرخون  
الآخرون يعطى الصورة الساطعة المشرقة من حكم محمد ، فالجبرتي يقدم  
الصورة الأخرى أو الوجه الآخر من هذه الصورة وهو الوجه القاتم من هذا  
الحكم وبذلك تكتمل على يد الجبرتي صورة هذا الحكم — ولكن الجبرتي  
يصور الأحوال في مصر في العصر العثماني في أدق وأحسن صورة تاريخية ،  
وبالذات مجتمع العلماء والمجتمع المملوكي — ويبدو أن الفضل الأول في ذلك  
يرجع إلى نشأة الجبرتي ، فالجبرتي نشأ في بيت علم وثراء — تحس بهذا كله  
عند قراءة ترجمته لوالده فالشيخ حسن الجبرتي كان عالماً كبيراً من علماء عصره  
وكان يئنه مركز التقاء لهؤلاء العلماء ، ثم كان عالماً ليس فقط في علوم الدين  
بل في علوم الدنيا ، ولا سيما الفلك والرياضيات — ومن ناحية أخرى كان  
الشيخ حسن رجل دنيا إلى كونه رجل دين ، فقد كان على صلة بالدوائر  
المملوكية الحاكمة والدوائر العثمانية وتولى هو نفسه حكم قلعة الطور في وقت  
من الأوقات — هذه الحقائق توضح البيئة التي عاشها عبد الرحمن الجبرتي ،  
بيئة العلماء وبيئة المماليك ، وهذه البيئة في نظري الفضل الأكبر في تفسير  
كتابة الجبرتي ، فالجبرتي غني جداً في تصويره للمجتمع العلمي والمجتمع المملوكي  
في هذا العصر بسبب ما ذكرناه — ومع أن الجبرتي به مادة لا بأس بها بالنسبة

(1) I bid.

للطوائف الأخرى كالتجار وأصحاب الحرف وأهل الذمة ، إلا أن تصويره  
يكاد يتركز سواء في تاريخه أو في تراجمه على مجتمع العلماء والمجتمع المملوكي (١) .  
رابعاً — كيف سار الجبرتي في تأليفه التاريخي — للجبرتي كتابان : مظهر  
التقديس بذهاب دولة الفرنسيين وهو مطبوع الآن طبعة غير محققة —  
ويتناول أحداث الحملة الفرنسية . وكتاب آخر اشتهر به وهو عجائب  
الإثار في التراجم والأخبار — يبدأ كما يبدأ المؤرخون بتاريخ مصر منذ أقدم  
العصور في عمالية سريعة حتى يدخل مفصلاً في العصر العثماني ، وينتهي عند نهاية  
مشيخة محمد بك أبو الذهب . والجزء الثاني عن مصر في عهد إبراهيم بك ومراد  
بك ، والجزء الثالث عن الحملة الفرنسية حتى تولية محمد علي ، والجزء الرابع  
والأخير عن محمد علي حتى ١٨٢١ م (١٢٣٦ هـ) . .

الجبرتي جمع مذكرات عن الأحداث والتراجم في حياته لإبان الحكم  
العثماني وقبل نزول الفرنسيين ، ولكنه بدأ سنة ١٢٢٠ هـ — ١٢٢١ هـ يكتب  
تاريخاً — ففي الجزء الأول يقول الجبرتي أن تاريخ جمع هذا الكتاب ( وقتنا  
هذا ) ، وقرب انتهاء الجزء الأول يشير إلى سنة ١٢٢٠ بقوله ( وقتنا هذا )  
وفي أول الجزء الثاني يشير إلى وقتنا هذا بسنة ١٢٢٠ فيقول ( هذا التاريخ  
الذي نمشي فيه لغاية سنة ألف ومائتين وعشرين ) وفي آخر الجزء الثالث  
يعود فيقول ( وستفيد إن شاء الله تعالى ما يتجدد بعدها من الحوادث من  
ابتداء سنة إحدى وعشرين التي نحن بها الآن أن امتد الأجل ) .

إذا الجبرتي ابتداء من ١٢٢٠ — ١٢٢١ هـ يبدأ في كتابة تاريخه كتابة  
منظمة مستمرة ، فإذا عن القرون السابقة لذلك ؟ يفهم من الجبرتي أنه اعتمد  
على أحمد شلبي عبد الغني في الفترة السابقة للفتح العثماني حتى سنة ١١٠٠ هـ  
ثم بعد ذلك اعتمد على رواية المسنين ونقوش المقابر ودفاتر الكتبة من ١١٠٠  
حتى ١١٧٠ هـ ثم يدعي الجبرتي أنه منذ ١١٧٠ بدأ يعتمد على ذاكرته . ولما  
كنا نستبعد ذلك لأن الجبرتي ولد سنة ١١٦٨ هـ فالأرجح أنه ظل يعتمد على

(1) I bid

المصادر التي ذكرها حتى ١١٩٠ هـ والمؤكد أنه بدأ يدون ملاحظاته بشكل منتظم في شكل مسودات حتى بدأ في ١٢٢٠ هـ يعمل على جمعها وكتابتها في شكل تاريخي .  
خامساً - ما الذي دفع الجبرتي إلى تسجيل الحوادث على النحو الذي ذكره أولاً ، ثم ما الذي دفعه إلى جمعها في ١٢٢٠ هـ وكتابتها وتدوين الحوادث في شكل منتظم بعد ١٢٢٠ هـ .

هذا الموضوع يرتبط بقصة علاقته باستاذة الزبيدي ، وبمؤرخ آخر في الشام هو المرادي .

#### كيف ألف الجبرتي كتابه .

لقد جاء تفكير الجبرتي في كتابة التاريخ أصلاً من محمد خليل المرادي الحسيني مفتي دمشق ( المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ ) - فقد كان المرادي مشغولاً بترجمة أعلام المائة الثانية عشر ( سلك الدور في أعيان القرن الثاني عشر - أربعة أجزاء ) ولما كانت هذه الدراسة تتطلب جهداً ضخماً فقد تحتم عليه الاستعانة بغيره من علماء عصره ، لذلك أرسل المرادي في سنة ١٢٠٠ هـ إلى الشيخ أبي الفيض محمد مرتضى الزبيدي ( ترجمته في الجبرتي الجزء الثاني من عجائب الآثار سنة ١٢٠٥ هـ ) : وكان الزبيدي من علماء اليمن أصلاً وينسب إلى زبيد ولكنه أقام في مصر في أواخر حياته ، وطلب المرادي من الزبيدي أن يساعده في جمع هذه التراجم . ودأب الزبيدي بالفعل على جمع بعض التراجم . ولما كان الزبيدي أستاذ الجبرتي فقد دعاه في جمادى الثاني من عام ١٢٠٣ هـ إلى الاشتراك معه في هذا العمل - ومن ثم بدأ الجبرتي كتابته للتاريخ بجمعه لتراجم أعيان القرن الثاني عشر من المصريين - ويروي الجبرتي بنفسه قصة هذه التراجم في ترجمته للشيخ محمد خليل المرادي ( ج ٢ - سنة ١٢٠٦ هـ ) فيقول ( وكان هو السبب الأعظم الداعي لجمع هذا التاريخ على هذا النسق . فإنه كان راسل شيخنا السيد محمد مرتضى والنس من نحو ذلك ، فأجابه لطلبته ووعده بأمنيته ، فعند ذلك

تابعه بالمرسلات واتحفه بالصلوات المترادفات ، وشرع شيخنا المرحوم في جمع المطلوب بمعونة الفقير ولم يذكر السبب لذلك ، وجمع الفقير أيضاً ما تيسر جمعه وذهبت به يوماً وعنده بعض الشاميين فاطلعه عليه فسر بذلك كثيراً وطارحنى وطارحته في نحو ذلك بمسح من الجالس ... وتنوسى هذا الأمر شهوراً ) - وواضح من هذا أن الزبيدي لم يطلع الجبرتي على سر اهتمامه بهذه التراجم - وقد بلغ ما كتبه الزبيدي من التراجم نحو عشرة كراريس مرتبة على حروف الهجاء وسماها ( المعجم المختص ) ذكر فيه حسباً يروي الجبرتي شيوخه ومن أخذ عنه أو جالسه من رفيق وصاحب وصالح أو من المشاهير ، ( وقد أذكر من احبني في الله واحبيته أو استفدت منه شيئاً أو انشدني شيئاً أو كاتبني أو كاتبته أو بلوت منه معروفاً وكرماً ) وقد وصف الجبرتي هذا المعجم المختص بقوله ( إلا أن السكراريس المذكورة لم تكمل وترك في الحروف يباضات كثيرة وغالب ما فيها أفاقيون من أهل المغرب والروم والشام والحجاز والذين ليس لهم شهرة ولا كثير بضاعة من الأحياء والأموات وأهمل من يستحق أن يترجم من كبار العلماء والأعظم ونحوهم . . . . . وفي عام ١٢٠٥ هـ توفي الشيخ الزبيدي بالطاعون الذي نزل بمصر ، فأخفت زوجته وأقاربها موته حتى نقلوا الأشياء النفيسة والمال والذخائر والأمتعة والكتب المكلفة ثم أشاعوا موته . . . ثم بيعت متروكاته بما في ذلك الكتب والدشتات ، وقد اشتراها الجبرتي وفيها المعجم المختص الذي سبق ذكره .

وفي أواخر سنة ١٢٠٥ هـ وصل الجبرتي من الشيخ المرادي الحسيني مفتي دمشق كتاباً وقرنه بهدية على يد السيد محمد التاجر القباقيبي « يستدعي تحصيل ما جمعه السيد ( الزبيدي ) من أوراقه وضم ما جمعه الفقير ( الجبرتي ) وما تيسر ضمه أيضاً وارساله » ، ويقول المرادي في خطابه للجبرتي « وهذا الأمر ما حررنا بخصوصه لأحد من العلماء ولا من التجار واعتمدنا على الجنبان بذلك اعتماداً على المحبة الموروثة والعلينا أن جنابكم أولى بذلك من ( ٣٢ - التاريخ )

كل أحد ولا سيما ما بلغنا من أن السيد ترجمكم (١) .  
ثم يقول «تجد جنابكم أن سعيكم هذا من أعظم المساعي عندنا لكون  
محبكم في غاية الاشتياق إلى ذلك ، فخرجوا لرسال ذلك أصلا واستكتابا » .

ولقد وصل هذا الخطاب قبل أن يكون الجبرتي قد ظفر بأوراق الشيخ  
الزبيدي من ورثته ولكنه أدرك من هذا الخطاب السبب الذي حدا بأستاذه  
الشيخ مرتضى إلى الاهتمام بترجمة أعلام المائة الماضية (الثاني عشر الهجري)  
فلم يكن ذلك وليد قريحته ابتداء بل نزولا على رغبة القاضي المرادي . فلما  
ظفر الجبرتي بأوراق الزبيدي بدأ بدراسة التراجم التي كان قد أعدّها الزبيدي .  
ويعتقد بعض الباحثين المعاصرين أن الجبرتي استرد التراجم التي كان قد  
كتبها بتكليف من الزبيدي (٢) . ولا يبدو هذا صحيحا :

أولا - ليس هناك ما يشير أصلا إلى أن الزبيدي احتفظ بتراجم  
الجبرتي وأغلب الظن أن الجبرتي احتفظ بها ليكملها وأنه حين أطلع أستاذه  
عليها لم يكن قد أتمها .

ثانيا - واضح أيضا من كلام الجبرتي عن «المعجم المختص» ، أنه كان  
يشمل تراجم رجال من أهل المغرب والحجاز والسودان ولا يشمل تراجم  
علماء وأعيان مصر ممن ينبغي للجبرتي أن يكون قد عني بهم .

(١) يقصد ترجم للشيخ عبد الرحمن الجبرتي ولا يبدو من كلام الجبرتي من المعجم المختص  
أن هذا قد حدث .

(٢) يقول الأستاذ محمود الشرفاوي (دراسات في تاريخ الجبرتي - الجزء الأول - ص  
٢٥) « فلما مات هذا (الزبيدي) بالطاعون في سنة ١٢٠٥ هـ استولت زوجته على جميع ما  
خلفه بما في ذلك كتبه وفيها ما قدمه له الجبرتي عن تاريخه ثم تزوجت أرملة واستطاع الجبرتي  
أن يشتري ما خلفه السيد فوجد ضمنه أوراقه » ويستطرد الأستاذ الشرفاوي فيقول « وأرسل  
له مفتي دمشق بعد ذلك يستعجه على أن يتم كتابه فكان ذلك مشجعا جديدا له » . والصواب  
من ناحية الترتيب الزمني أن مفتي دمشق أرسل إلى الجبرتي خطابه « وكانت أوراق السيد  
مختوما عليها » ثم لما « فتحت السكرة بوصاية لزوجته » اشترى الجبرتي ما اشتراه من  
كتب ودفنت .

ثالثا - ينتقد الجبرتي معالجة الزبيدي للتراجم فيقول « أنه أهمل من  
يستحق أن يترجم من العلماء والأعظم وغيرهم » .

ثم يروي الجبرتي بعد ذلك كيف أن خطاب الشيخ المرادي قد شجذته  
للعودة إلى هذه الدراسة فيقول « فلما رأيت ذلك وعلمت سببه وتحققت  
رغبة الطالب لذلك ، جمعت ما كنت سودته وزودت فيه وهي تراجم فقط  
دون الأخبار والوقائع » . وفيما هو منشغل بهذا العمل الشاق اذ « ورد علينا  
نعي المترجم (المرادي) ففترت الهمة وطرحت تلك الأوراق في زوايا  
الاهمال مدة طويلة . . . » ويفهم من ذلك :

أولا - أن الجبرتي قد توقف عن متابعة بحثه حين وصله نبأ وفاة الشيخ  
المرادي .

ثانيا - أن بحثه من الناحية التاريخية حتى ذلك الوقت لم يعد بعض تراجم .  
ويبدو أن الجبرتي قد انقطع عن كتابة التاريخ بعد ١٢٠٦ هـ حتى عاد  
إليها في شكل جديد وهو المذكرات اليومية منذ ١٢١٣ هـ عند نزول  
الفرنسيين بمصر . وقد كتب الجبرتي تاريخ مصر تحت الاحتلال الفرنسي  
من ١٢١٣ هـ - ١٢١٦ هـ في كتابه المخطوط « مظهر التقديس  
بذهاب دولة الفرنسيين » في شكل مذكرات يومية . ويشير الجبرتي  
إلى هذه الحقيقة في مقدمة مظهر التقديس بقوله « ولقد كنت سطرت  
ماحصل من الوقائع من ابتداء تملك الفرنسيين لأرض مصر إلى أن دخلها  
مولانا الوزير في أوراق غير منظومة . وكثيرا ما كان يخطر ببالي وإن لم  
يكن ذلك من شأن أمثالي أن أجمع إقراؤها وأكسبها بالترصيف اتساقها  
ليكون ذلك تاريخا مطلقا للبيب عن عجائب الأخبار وغرائب الآثار تذكروا  
بعدنا لكل جيل » . ولقد حدث أن صديقه الشيخ حسن العطار كانت  
تراوده نفس الفكرة فكتب هو الآخر مذكرات عن تاريخ الاحتلال  
الفرنسي ثرا وشعرا ، وقد أضاف الجبرتي ما كتبه العطار إلى ما كتب هو

وأخرج منها كتابه مظهر التقديس (١)، وعلى ذلك فمن المؤكد أن الجبرتي حتى عام ١٢١٦ هـ كان قد قام بعملين علميين هامين، الأول عبارة عن تراجم متناثرة لأعيان القرن الثاني عشر الهجري، والثاني يشمل تاريخاً كاملاً في شكل مذكرات يومية لأحداث مصر في ظل الاحتلال، وتبقى بعد ذلك العملية الأخيرة في تاريخ الجبرتي وهي الربط بين الباحثين ذلك الربط الذي تمخض عن كتابه المعروف عجائب الآثار في التراجم والأخبار بأجزائه الأربعة. والجبرتي يشير إلى هذا الربط في ترجمته للبرادي (١٢٠٦ هـ) بقوله «وفي أثناء ذلك ورد علينا نبي المترجم ففترت المهمة وطرحت تلك الأوراق في زوايا الإهمال مدة طويلة حتى كادت تتناثر وتضيع إلى أن حصل عندي باعث من نفسى على جمعها من الوقائع والحوادث والمتجددات على هذا النسق». ومعنى هذا أن الجبرتي جمع من مصادر متعددة ما استطاع جمعه من وقائع القرن الثاني عشر الهجري حتى عام ١٢١٦ هـ وأخرج من هذا كله الجزء الأول والجزء الثاني من كتابه الذي أطلق عليه عجائب الآثار ثم عدل في مظهر التقديس وأخرج منه الجزء الثالث من عجائب الآثار مع إضافة حوادث ما بين سنة ١٢١٦ هـ وسنة ١٢٢٠ هـ، وبعد أن حذف ما كتبه العطار إلا المنظوم منه فيشير إليه بقوله «كما قال صاحبنا الشيخ حسن العطار، وكان في مظهر التقديس قد اكتفى بتراجم الأمراء المماليك فأضاف في عجائب الآثار تراجم المشايخ أيضاً». ثم أخذ يدون مذكراته للجزء الرابع الذي يشمل تاريخ مصر من سنة ١٢٢١ هـ حتى سنة ١٢٣٦ هـ، ويدل ذلك على أن الجبرتي كان لديه متسع من الوقت لمراجعة وتنظيم وتنسيق الأجزاء الثلاثة الأولى من عجائب الآثار ولكنه مرض ثم مات أبان كتابته للجزء الرابع وهذا هو التفسير لما يردده المؤرخون من أن الجزء الأخير من

(١) ترجمة حسن العطار، المخطوط التوفيقية ج ٤ ص ٣٨ وما بعدها.

عجائب الآثار يتسم بالاضطراب وعدم التناسق (١).

ويبقى أن نحيط على هذا السؤال: متى ظهر هذا الباعث النفسى الذى أشار إليه الجبرتي وما هي العوامل التي أدت إلى ظهوره؟ لقد بدأ الجبرتي في كتابه عجائب الآثار على النحو السابق في سنة ١٢٢٠ هـ. ومعنى هذا أن الباعث النفسى لابد أن يكون قد ظهر في هذه السنة أو قبل ذلك بتليل. ويبدو أن الباعث النفسى كان رغبة الجبرتي في أن يغير موقفه من الأحداث التي مرت بمصر منذ الغزو الفرنسى حتى سنة ١٢٢٠ هـ، وأن العامل الأساسى الذى دفع إلى ذلك هو خيبة الأمل التي أصابت الجبرتي في الحكم العثمانى عقب عودة العثمانيين إثر خروج الفرنسيين من مصر والتي جعلته يدرك أن الحكم العثمانى لم يكن خيراً من الحكم الفرنسى بل على العكس ربما يكون الحكم الفرنسى من بعض الوجوه خيراً من الحكم العثمانى ولذلك فالجبرتي يعيد موقفه من الحكم الفرنسى وعودة العثمانيين ليصبح أكثر موضوعية وأقل عاطفية بما كان عليه في مظهر التقديس:

وأقرب سبيل لفهم هذه الحقيقة المقارنة بين مظهر التقديس من ناحية والجزء الثالث من عجائب الآثار من ناحية أخرى وهو المستخرج المعدل من مظهر التقديس. والحقيقة أن هذا التعديل لا يعنى مجرد التنظيم والتبويب لإخراج جديد بل يحمل تغييراً موضوعياً في تفكير الجبرتي السياسى.

(١) المعنيون بتاريخ مصر يأخذون من اضطراب الجزء الرابع من تاريخ الجبرتي دليلاً على أن بعض أجزاءه قد حذفت عند الطبع والبعض الآخر يعتقد أن هذا الحذف يرجع إلى ما كتبه الجبرتي عن محمد على. والحقيقة أن الجزء الرابع المطبوع من عجائب الآثار يشمل كل ما كان الجبرتي يود أن يقوله في محمد على. وفي رأينا أن السبب الذي جعل البعض يعتقد أن فقرات قد حذفت من الجزء الرابع هو اضطراب المسودات التي كتبها الجبرتي وهو كبير السن ومريض ومات قبل أن يتمكن من تنسيقها. وفي البحث الذى قام به الأستاذ محمود السرقاوى مقارنة بين النسخ المخطوطة للجبرتي قديمها وحديثها والنسخ المطبوعة تؤكد أن الجزء الرابع المطبوع من عجائب الآثار لم يحذف منه شيء بالمرة.

إن الشواهد الداخلية والخارجية تجعلنا نحكم على مظهر التقديس بأنه التاريخ الرسمي للحملة الفرنسية فالكتاب مهدي إلى الوزير يوسف باشا إذ يقول الجبرتي في آخره في ذكر فضائل شهر رمضان المبارك « وأيضاً أن شهر الصيام مقدمة شهر العيد الذي هو موسم السرور المديد وقد كان قدوم المشار إليه (الوزير يوسف ضيا باشا) نظر الله بعين الرعاية إليه مفتاح أبواب المسرات التي طال إنغلاقها ومعيد بهجة مصر التي كسف بظلام الكفرة إشراقها ثم لسدته التي هي ملثم شفاه الإقبال ومحيط أفاضل الرجال أهدى كاسد هذا التصنيف وخامل هذا الترصيف فإن لاحظته بعين القبول وذلك هو المتيقن والمأمول راج في معالم الأدب سوقه وبطابع السعود شروقه . . . وواضح من هذا أن الجبرتي كان يرحب برجوع العثمانيين ويعتبر هذا بداية لانبثاق عهد جديد زاهر ونهاية حكم فرنسي لم يكن راضياً عنه وفي مقدمة الكتاب ما يشير إلى هذه الحقيقة على نحو أوضح فهو من ناحية يلقي اللوم في تمكن الفرنسيين من احتلال مصر على الأمراء المماليك الذين انكسرت عليهم الدولة لحماية الإقليم « فخرىوا الثغور وأشادوا القصور » . فلما دهمتهم الفرنسيين ثغرها الخالي ووقعت منه على طلل بالي سهل عليهم الحال فاقتموه ودخلوا من باب الإقليم بدون أن يفتحوه وتفاعدت العساكر المصرية على التسارع لاستنفاد الثغر فعظم البلا وأخذ العدو يطوى بساط الأرض حتى إذا التقى الجمعان لم يسع القوم إلا الفرار في الفلا . إلى أن يقول « وأتاحت دولة الكفار بكلها على هذا القطر العظيم وانتشروا في أرجائه انتشار السم في جسد السليم . . . ولقد كادت تعم الرزية وتصير القضية أندلسية لولا عناية مزايده الله بالنصر والتسكين وتلى عسكره المنصور مهما توجه لمعقل آية الفتح المبين وهو الملك الأعظم والسلطان الأفخر غياث المسلمين ، ملاذ المؤمنين ، مالك رقاب الأمم ، ملجأ العرب والعجم ، حافظ ناموس الشريعة الغراء بقوة سطوته باسط

بساط العدل والإحسان على كامل رعيته » (١) .

ولا شك أن الجبرتي اتصل بالوزير العثماني وأن الوزير أحسن استقبال الكتاب لأنه بعد عودته إلى دار السلطنة عرضه هناك على السلطان سليم الذي أمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى التركية ففرغ من ذلك سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٣ م) ، ومن المرجح أن الوزير وقد أكرم الجبرتي كعالم فلكي عهد إليه بتحرير التقاويم والتوقيت ورتب له جعلاً على ذلك (٢) .

أولاً) ورغم أن مظهر التقديس يمثل في نظرنا التاريخ الرسمي للحملة الفرنسية إلا أنه يعكس بامانة كذلك موقف الجبرتي من هذه الأحداث ، وهو يتلخص في الحملة الشديدة على الحكم الفرنسي واعتبار البكوات المماليك مسئولين عن نجاح الفرنسيين في غزو مصر ثم التنبؤ بانتهاء عصر جديد من الاستقرار ، الرفاهية والعدالة بدخول العثمانيين ، عودة الحكم العثماني المباشر هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يلاحظ أن الجبرتي في مظهر التقديس بعيد عن موضوعية المؤرخ لا ينظر إلى الحوادث نظرة مجردة من العاطفة الدينية أو العاطفة الوطنية . ومع أنه في عجائب الآثار لم يتخل قط عن هاتين العاطفتين إنما من الواضح أنهما لم يتحكما كلية في كتاباته كما حدث في مظهر التقديس . ففي مظهر التقديس كان الجبرتي يرى كل ما هو فرنسي كره ويكفي أن يكون الحكم غير إسلامي ليحمل عليه الجبرتي أما في عجائب الآثار فقد أخذ الجبرتي ينظر إلى الأحداث بعين الناقد الموضوعي فليس كل ما هو غير إسلامي سيء وليس كل حكم إسلامي طيباً فقد أتى الفرنسيين من الأعمال ما يجعلهم أحياناً أفضل من العثمانيين وليس معنى هذا أن الجبرتي قد أخذ يدافع عن الحكم الفرنسي ، فهو لا يزال الشيخ الأزهرى المتدين الذي يكره حكماً غير إسلامي ويرى بحق أنه امتلاً بالقسوة والعنف ولكن الجبرتي في عجائب الآثار يشيد بالفرنسيين إذا

(١) ص ٧٤ ، ٦٤ ، ٥٥ .

(٢) خايل شيبوب ، عبد الرحمن الجبرتي ص ٨٩ .

استحقوا هذا . وخلاصة القول أن الجبرتي في عجائب الآثار يحمل على حكم البكوات الممالك أولاً وعلى الحكم الفرنسي ثانياً وعلى الحكم العثماني الذي أعقب خروج الفرنسيين ثالثاً — ليس هذا فقط بل أنه يعتبر أن الحكم العثماني أشد وطأة رغم إسلاميته من حكم الفرنسيين وأن حكم الفرنسيين بدوره كان أشد وطأة من حكم البكوات الممالك ومن هذا كانت نظرة الجبرتي المتشائمة من تطور الأحداث في مصر وما نلسه من أن رأيه في النهاية كان يعنى أن الأحوال في مصر تسير من سيء إلى أسوأ .

✕ ثانياً — يشيد الجبرتي بالفرنسيين في عدة مواقف في عجائب الآثار لم يشر إليها إطلاقاً في مظهر التقديس مثال ذلك إعجابه بتنظيم الفرنسيين لأعمال الديوان وتفوقهم العلمي ونظامهم في القضاء كما رآه في محاكمة قاتل كبير وإعجابه بالكرتيلة الفرنسية حين نزل الطاعون بمصر (شوال ١٢١٥) . وهذا ما كتبه في عجائب الآثار من وصفه للمعهد العلمي الفرنسي في حارة الناصرية « وأفردو اللذين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالمهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب . . حارة الناصرية وما بها من البيوت مثل بيت قاسم بك . . ووضعوا فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها للطلبة ومن يريد المراجعة يراجعون فيها مرادهم ، فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين ويجلسون في فسحة المسكان المقابلة لخزان الكتب على كراسي منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها يحضرها له الخازن فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريدوا الفرجة لا يمنعون الدخول إلى أعز أما كنهم ويتلقونه بالبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء وبتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم وحوادث أممهم مما يحير الأفكار ، ثم يقول « ولقد ذهبت إليهم

مراراً وأطلعوني على ذلك . . . وكتب من الكتب الإسلامية مترجمة بلغتهم . . . ورأيت بعضهم يحفظ سوراً من القرآن ولهم تطلع زائد في العلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير في معرفة اللغة والمنطق ويدأبون في الليل والنهار وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريقها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أي لغة كانت إلى لغتهم في أقرب وقت ، ثم يصف زيارته لتوت الفلكي وتلاميذه في مكانهم المختص بهم وأريحو المصور ورويا الحكيم (الكيميائي) وبعد وصفه لبعض التجارب الكيميائية والطبية يقول « ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة يفتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا . . (١)

✕ وكتب الجبرتي تعليقا على ما نسميه اليوم بحوثات الحكم في قضية قاتل كبير فيقول « ذكروا فيها سورة الواقعة وكيفية طبعها وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الفرنسية والتركى والعربية . . . وقد كنت قد أعرضت عن ذكرها أطولها وركاكة تركيبها لقصورهم في اللغة ثم رأيت كثيرا من الناس تشوق نفسه إلى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون العقل ولا يتدينون بدين وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسوبهم رجل آفاق أهوج . . وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضخمة بدم سارى عسكرهم وأميرهم بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألهم على انفرادهم ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة بما اقتضاه التحكيم وأطلقوا مصطفى أفندى البرصلى الخطاط حيث لم يلزمه حكم ولم يتوجه عليه قصاص كما يفهم جميع ذلك من فحوى السطور بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أو باش العساكر الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدون وقتلهم لأنفسهم

(١) عجائب الآثار ج ٣ ذكر حوادث شهر جمادى الثانية ١٢١٣ .

وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية مما سيقلى عليك بعضه بعد . . .

ويلاحظ عند المقارنة بين مظهر التقديس وعجائب الآثار أن الجبرتي لا يشير إلى العثمانيين في مظهر التقديس إلا بقوله « المسلمين » ، بينما يطلق عليهم في عجائب الآثار « العسكر » أو العثمانية — وفي مظهر التقديس لا يذكر اسم قائد من القادة الفرنسيين إلا مصحوباً بوصف معين كقوله : برطلين الكافر ، اللعين كفرلي ، والتعيس بونا برته ، والملعون ديبوى ، والملاعين الكفار ، ولكنه يحذف كل هذه الأوصاف في عجائب الآثار .

والحقيقة أن المقارنة بين بعض النصوص الواردة في الكتاتين توضح مقدار التباين في عاطفة الجبرتي وموقفه المعدل .

#### ١ — حوادث محرم ١٢١٣ :

مظهر التقديس « وفي يوم الإثنين وردت الأخبار بأن الفرنسيين وصلوا إلى دمنهور ورشيد وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم فذهبوا إلى فوة ونواحيها والبعض أقام ببلده فأمن » .

عجائب الآثار « وفي يوم الإثنين . . . والبعض طلب الأمان وأقام ببلده وهم العقلاء » .

#### ٢ — صفر ١٢١٣ ( عن دخول الفرنسيين القاهرة ) :

مظهر التقديس : « ثم أن عساكرهم صارت تدخل إلى المدينة شيئاً فشيئاً حتى امتلأت منهم الطرقات . . . ولكن لم يشوشوا على أحد وياًخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها وهذه من أعظم المكاييد لأجل احتلال عقول العامة وانهمسكوا على أنواع المأكولات مثل الكلاب السمرانيين فقجن السوق . . . »

عجائب الآثار : « ثم أن عساكرهم . . . ولكن لم يشوشوا على أحد وياًخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها فقجن السوق . . . »

#### ٣ — ربيع الأول ١٢١٣ ( احتفال الفرنسيين بعيد الجمهورية ) :

مظهر التقديس : « وسبب هذا العيد أنهم لما قتلوا سلطانهم وظهرت رغبتهم التي ابتكروها وخرجوا بها عن الطريق والمثل جعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخاً » .

عجائب الآثار : وذلك اليوم كان ابتداء قيام الجمهور ببلادهم فجعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخاً » .

#### ٤ — رمضان ١٢١٣ ( عن أسرى المماليك )

مظهر التقديس : « فلما أصبح الأحد حضر المماليك المذكورة وهم ثمانية عشر مملوكاً وأربعة من الكشاف وهم راكبون الخمر ومثقلون بأسلحتهم ومعهم نحو المائة من عسكر الفرنسيين فحزن المسلمون لذلك وانقبضت نفوسهم وصاروا بين مصدق ومكذب » .

عجائب الآثار : « فلما أصبح . . . ومعهم نحو المائة من عسكر الفرنسيين وأمامهم طبولهم وخرج بعض الناس تشاهدتهم » .

#### ٥ — ذى الحجة ١٢١٣ ( حملة الشام )

مظهر التقديس : « ولم يأت خبر صحيح عن الفرنسيين الشام وما جرى لهم أو عليهم إلا روايات لا يوثق بها ولا يصح المتواتر منها إلا تكرار هجوم الفرنسيين على حصون عكا ولم يتركوا من جعلهم ومكايدهم شيئاً إلا فعلوه ولم ينالوا غرضاً منها ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

عجائب الآثار : « ولم يأت خبر صحيح . . . ولم ينالوا غرضاً منها » .

#### ٦ — ذى الحجة ١٢١٣

مظهر التقديس : يورد القصيدة التي نظمها السيد علي الصيرفي الرشيدى .

في مدح أحمد باشا الجزائر وهي تسعة وسبعون بيتاً وثم يعلق بقوله : ثم هو  
قدم مدح مخدومه أحمد باشا الجزائر وهو بهذا المدح حقق لكونه جاهد في الدين  
حق الجهاد فأرغم العدو وأسر الصديق - وفي الواجب والمتحم لدى أن أمدح  
مولانا الوزير أبقاه الله شكري على نعمه فتولى مصر التي أجزاها الله على يديه  
واختاره لهذه المنقبة الشريفة الرفيعة الذكر في الدنيا والمضاعفة الثواب في  
الأرض لديه واستنقاذها من أسر أولئك الكفرة اللثام ورد شمل المسلمين  
بعد الصدع إلى الانتظام والائتمام .

عجائب الآثار : يذكر عشرة أبيات من قصيدة الرشيدى دون تعليق .

٧ - صفر ١٢١٤ ( معركة أبي قير البرية ) :

مظهر التقديس : يذكر الجبرتي « العسكر السلطاني بجهة أبي قير » .

عجائب الآثار : يذكر الجبرتي « العسكر الوارد لجهة أبي قير » .

مظهر التقديس : « أشيع أن فرنساوية انقضوا على المسلمين وأخذوا

قلعة أبي قير » .

عجائب الآثار : « أشيع أن فرنساوية تحاربوا مع العساكر الواردين

على أبي قير وظهروا عليهم وقتلوا الكثير منهم ونهبوا وملكوا قلعة أبي قير » .

٨ - ربيع الأول ١٢١٤

مظهر التقديس - « حضر كبير الفرنسيين ودخل إلى داره بالأزبكية

وحضر صحبته عشرة أناس أسرى المسلمين ( موقعة أبي قير ) وشاع الخبر

بمضوره فذهب كثير من الناس إلى الأزبكية ليتحققوا الخبر على جليته

فشاهدوا الأسرى وهم وقوف في وسط البركة نيراهم الناس فكفكفت الناس

دموعهم وكظموا غيظهم وطووا قلوبهم على حرقة الناس ومرارة الأنف

وأظهروا التجلد للعدو وقد طار من القلب الراحة والهدوء » .

عجائب الآثار : « حضر سارى عسكر فرنساوى بونايرته ثم دخل إلى

داره . . . ليراهم الناس ثم أنهم حرقوه بعد حصنة من النهار » .

ونستطيع من هذه المقارنة أن نخرج بحقيقة جوهرية هامة وهي أن الجبرتي

في عجائب الآثار ( ج ٣ ) قد غير - إلى حد كبير - موقفه من الاحتلال

الفرنسي على أسس معينة :

أولاً - أنه كان أكثر موضوعية في عجائب الآثار .

ثانياً - أن من مظاهر هذه الموضوعية انتفاء العاطفة الساذجة واختفاء

أثرها في حكمه على الحوادث والناس .

ثالثاً - أن الجبرتي في مظهر التقديس كان كاتب مذكرات أكثر منه

مؤرخاً بينما أتاحت له في عملية إعادة كتابة حوادث الاحتلال الفرنسي في

الجزء الثالث من عجائب الآثار فرصة لفحص هذه الحوادث بعمق وإلقاء أضواء

جديدة عليها حتى برزت صفته كمؤرخ أكثر منه كاتب مذكرات .

\*\*\*

#### مدرسة التراجم :

عرضنا في المحاضرات السابقة إلى المدارس التاريخية الثلاث في العصر العثماني :

مدرسة اهتمت بالتاريخ العام واستطاعت أن تحتفظ ببعض التقاليد التي

ورثها العصر العثماني في صناعة التاريخ . والمدرسة الثانية هي مدرسة التراجم

وهذه أيضاً امتداد لتقاليد عربية في كتابة التاريخ ، والمدرسة الثالثة

هي مدرسة الأجناد التي اهتمت بصفة خاصة بحوادث الحروب والفن بين

الحاميات العثمانية التي ملأت هذا العصر .

وقد تكلمنا عن المدرسة الأولى ، مدرسة التاريخ العام ، وموضوعنا

اليوم هو مدرسة التراجم . ومدرسة التراجم من أعرق وأغنى المدارس

التاريخية العربية ، والمعتقد أنه ليس هناك أمة عنت بتدوين سير مشاهير

رجالها كما فعلت الأمة العربية فنبدأ ابن اسحق بوضع سيرة النبي والواقدي

وابن سعد في تأليف الطبقات إلى يومنا هذا ومدرسة التراجم هي الغالبة على كتابة

التاريخ العربى — وقد بلغ من ولع العرب بهذا الفرع بالذات من التاريخ تنوع التأليف به وتعددده، فمنها ما رتب السير فيه على طبقات، طبقة للصحابة وأخرى للتابعين وطبقة للقراء وأخرى للمحدثين وطبقة للشعراء وطبقة للأدباء وطبقة للنحاة وطبقة للأطباء، بحيث مثل أن تجد اهل فن أو علم أو فرقة من الفرق أو اتباع مذهب من مذاهب لم توضع طبقة أو طبقات فى تراجمهم.

ومن ابرز هذه التأليف تراجم الأعيان عامة دون الاختصار على طبقة خاصة كوفيات الأعيان لأن خلاكان مثلاً وفوات الوفيات للكتنى وتهذيب الاسماء للنوى وهلم جرا — بل ذهب بعض المؤرخين من العرب فى تراجمهم للأعيان بتصنيف مؤلفاتهم وفق القرون، فهذا كتاب فى اعيان القرن الثامن وذلك فى أعيان القرن التاسع — وهذا النوع الأخير اى الذى يتناول الأعيان بصفة عامة داخل اطار قرن واحد احدث عهداً من كتب الطبقات الأخرى. ويدور اقدم المشهور منها على سير اعيان القرن الثامن الهجرى وهو كتاب الدرر الكامنة فى اعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلانى، ويليه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى.

هذه المدرسة بالذات هى التى ظهر فيها نوع من البعث والاحياء فى العصر العثمانى. فالحقيقة أن كتابة التراجم فى العصر العثمانى لاتسير موازية مع حركة التاريخ العام — هذا أولاً — ثم تتميز هذه المدرسة بعد ذلك بأمرين بارزين للغاية: أولاً أنها لم تعرف الصفة الإقليمية أو المحلية التى عرفها التاريخ العام، فليست هناك تراجم لأعيان بلد عربى بذاته، وإنما هى كلها أو أغلبها، تراجم للعلماء العرب فى منطقة الشرق العربى، واقول فى الشرق العربى، لأنه قلما تناولات علماء المغرب. على أننا نلاحظ هذه الوحدة العربية عند تراجم العلماء فقط ولا نلاحظها مثلاً فى تراجم رجال الدولة، والسبب فى ذلك الصلة العلمية الدينية داخل دائرة العلم فى الشرق العربى: القاهرة دمشق، حلب، مكة والمدينة، حضرموت وزبيد وغيرها.

ثانياً — الملاحظة الأخرى هى أن التفوق فى هذا الشأن كان من الشام: فمدرسة الشام، ومدرسة دمشق بالذات كانت لها الصدارة فى هذه التراجم، وهى التى اثرت فى غيرها من مدارس التراجم فى الشرق العربى، فالغزى صاحب الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، كان من غزة أصلاً ورحلت أسرته إلى دمشق وتعلم هناك، وابن طولون الصالى الدمشقى صاحب كتاب ذخائر القصر فى تراجم نبلاء العصر (القرن العاشر أيضاً) كان دمشقىاً — وفى القرن الحادى عشر بدر الدين حسن الصفورى صاحب تراجم الأعيان من أبناء الزمان كان من بلاد الشام، ومصطفى فتح الله الحموى الأصل صاحب فوات الارتحال ونتائج السفر فى أخبار أهل القرن الحادى عشر، والمحجى صاحب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر، حموى الأصل أيضاً — وحين نصل إلى القرن الثانى عشر الهجرى نجد المرادى من دمشق وهو صاحب الاثر الكبير الذى دفع الزبيدي والجبرقى إلى كتابة التراجم كما رأينا فى حديثنا عن عبد الرحمن الجبرقى.

على أن التأثير الشامى فى حركة التراجم لم تكن تعنى الاختصار على تراجم بلاد الشام، فكل واحد من هؤلاء كان يكتب تراجم علماء العرب فى الشرق العربى كله.

وفى القرن العاشر، يبرز فى هذا المجال ثلاثة: الغزى، والعيدروسى وابن طولون — والغزى هو المشهور من هؤلاء الثلاثة، فكتابه يتناول أعيان المئة العاشرة كلها. وقد قام بنشره وتحقيقه جبرائيل سليمان جبور، ونشره فى ثلاثة اجزاء فى بيروت الأول فى عام ١٩٢٥ والثانى ١٩٤٩ والثالث فى عام ١٩٥٨. والغزى هو نجم الدين محمد بن رضى الدين الغزى العامرى القرشى الشافعى، توفى فى سنة ١٠٦٠ هـ عن ثلاث وثمانين سنة. جمع فى كتابه هذا تراجم أعيان المائة العاشرة من أهل دمشق وحلب وبعضها من بلاد الشام ومن علماء القاهرة والحرمين الشريفين ومن أعيان الأتراك

العثمانيين - وقد وضع الغزى كتابه في ثلاثة أجزاء أسماها الطبقات . يدور الأول منها على تراجم الأعيان المتوفين من أول سنة تسعمائة وواحدة إلى آخر سنة تسعمائة وثلاث وثلاثين أى الثلث الأول من القرن العاشر ، ويدور الجزء الثانى على المتوفين فى الثلث الثانى من القرن المذكور ، ثم يدور الجزء الثالث على المتوفين فى الثلث الثالث . وقد رتب المؤلف التراجم فى كل جزء على حروف المعجم ولم يستثن من أسماء المترجمين إلا المحمدين فقد وضعهم فى أول كل طبقة ثم بدأ بعدهم بالأسماء التى أولها حرف الألف حتى انتهى إلى الياء .

ومع ان الغزى أصلاً من غزة ، إلا أن أسرته ارتحلت سابقاً إلى دمشق وولد هو هناك فى سنة ٩٧٧ هـ وتعلم على يد علماء دمشق فى القرن العاشر وجال فى أنحاء بلاد الشام وتأثر بمدارسها المختلفة ولا سيما بمدرسة حلب كما زار مكة والمدينة . ومع أنه ليس من الواضح لا فيما كتبه هو عن نفسه أو فيما كتبه المحب عنه أنه زار مصر ، إلا أنه كان على صلة بعلماء مصر - فقد ذكر ( وأجازنى من المصريين شيخنا شيخ الإسلام شمس الدين الرملى المصرى وشيخنا العارف بالله تعالى الأستاذ الأعظم زين العابدين البكرى ) ومع أن الغزى يحوى تراجم من أنحاء العالم العربى ومن بلاد الروم أيضاً ، إلا أنه يلاحظ أنه ينفرد بالإفاضة فى تراجم علماء الروم أى الأتراك ، وهو أمر يدل على الصلة الوثيقة بين علماء الشام وعلماء الروم ، أكثر بكثير من اتصال علماء مصر بعلماء الروم . والحقيقة أنه يبدو أن الشام بسبب موقعها الجغرافى كانت حلقة الاتصال بين علماء الشرق العربى وعلماء الروم - كذلك يلاحظ عن تراجم علماء مصر أنها قليلة بالنسبة لعلماء البلاد العربية الأخرى ولا سيما الشام - كذلك يلاحظ حول تراجم الغزى ، وهذا أمر يكاد ينفرد به أنه ترجم لبعض السيدات الصالحات المتنسكات من العرب . وعلى كل حال فيظل المحور الذى تدور حوله تراجم الغزى أهل العلم ولا سيما أهل الشريعة والإفتاء والقضاء .

وكتاب التراجم الآخر فى القرن العاشر ، هو النور السافر فى أخبار القرن العاشر ، وهو مطبوع فى عام ١٩٣٤ م بمطبعة الفرات ببغداد ، صححه وضبطه محمد رشيد الصفار فى مجلد واحد . والمؤلف عربى الأصل من حضرموت وإن كانت أسرته قد ارتحلت إلى الهند وعاشت هناك ، وهو محبى الدين عبد القادر العيدروس الهندى . وقد ذكر فى حديثه عن عام ٩٧٨ هـ الكثير عن تربيته وأسرته وحياته ومؤلفاته ، ولا يفهم من حديثه أنه زار مصر وإن كان على صلة بعلماء الشرق العربى ولا سيما علماء اليمن - فقد ولد فى عام ٩٧٨ هـ . وتوفى حسبما يذكر المحبى فى سنة ١٠٣٨ هـ بمدينة أحمد آباد وعمره ستون سنة - وقد بدأ العيدروسى تراجمه بسنة ٩٠١ هـ حتى آخر سنة ١٠٠٠ هـ . وتحدث عن خطته فى مقدمة كتابه فقال ( ذكرت فيه وفيات من ظفرت بتاريخ وفاته ، ممن مات فى هذا القرن ... من سائر العلماء والصلحاء والقضاة والأدباء والملوك والأعيان ، مصرياً كان أو شامياً ، حجازياً أو يمنياً أو رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً - وضممت إلى ذلك ذكر بعض الحوادث والجاريات والحكايات العجيبة والملاح الغريبة . ولا يعدم كل شخص نادرة جرت له من الأخبار وشعر نظمه من الأشعار على وجه الاختصار . وما يحصل من الاعتبار . . . . هذا ولم استوعب كل ما وقع فى هذا القرن من الحوادث لعدم اطلاعى عليها ، وإنما ذكرت ما انتهى إليه علمى منها وربما أن الذى تركته يكون أكثر مما ذكرت ، ولكن إذا كانت الغايات لا تدرك فاليسير منها لا يترك ، وأرجو أن يكون هذا الكتاب كتاب حديث وفقه وتاريخ وأدب ] . والواقع أن هذا الكلام يوضح طبيعة الكتاب بل طبيعة التأليف بشكل عام فى ذلك العصر ، فالمقصود بالتراجم بصفة عامة أن تكون مجموعة من الدراسات المتنوعة فى شتى نواحي المعرفة - وليس فى كلام المؤلف اختلاف عن بقية أصحاب التراجم فى هذا العصر أو ما سبقه أو ما لحقه وإنما الجديد الذى يقدمه هذا المؤلف : أولاً أنه يؤكد الوحدة الثقافية التى أشرنا إليها .

وثانياً : عنايته الخاصة بتراجم أهل العلم في الهند واعتباره هؤلاء جزءاً من التراث العربي الثقافي في ذلك الوقت وإلى جانب عنايته بعلماء اليمن .

\* \* \*

فإذا انتقلنا إلى القرن الحادى عشر وجدنا غزارة في التأليف في هذا النوع من الكتابة التاريخية . ولكن سنقتصر حديثنا هنا على ثلاثة منها ، تراجم الصفورى ، ومصطفى فتح الله الحموى ، والمحجى ، والمحجى هو الوحيد المطبوع من هذه الكتب الثلاثة .

وكتاب [ تراجم الأعيان من أنباء الزمان ] لبدر الدين أبى الضياء حسن ابن محمد الصفورى المولود بقرية صفورية في سنة ٩٦٣ هـ والمتوفى في سنة ١٠٢٤ هـ بدمشق . ابتدأ في تأليفه في سنة ١٠٠٩ هـ بتشجيع من أستاذه محمد أمين السابق الجعفرى الذى بدأ يتلمذ عليه الصفورى منذ ١٠٠٨ هـ — وضمن كتابه تراجم من وجد من زمن ولادته إلى الشروع في تأليفه من الأعيان والعلماء والفضلاء والأدباء والسلاطين والأمراء ورتبه على حروف المعجم وابتدأ بالأحمدية . ومع أن هذا الكتاب يقتصر في أغلبه على علماء ورجالات الشام بصفة عامة — دون بقية أنحاء العالم العربى — إلا أنه من أنفع كتب التراجم في القرن الحادى عشر . فقد كتب سجعاً ، كما يحوى مادة غنية جداً بالنسبة لمن ترجم لهم ، فهو لا يكتفى بذكر اسم المترجم وسنة وفاته وأهم مؤلفاته بل تليس نوعاً من التحليل والنقد تكاد تخلو منه كتب التراجم المعاصرة .

فإذا انتقلت إلى المؤلف الآخر وهو [ فوائد الإرتحال ونتاج السفر في أخبار أهل القرن الحادى عشر ] ، للشيخ مصطفى فتح الله الحموى الأصل ( المتوفى في سنة ١١٢٣ هـ ) تصل إلى أضخم عمل في التراجم في القرن الحادى عشر — فالكتاب حافل بتراجم مشايخ وعلماء القرن الحادى عشر الهجرى — وهو عبارة عن موسوعة جمعت من ذيل الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة للغزى ، ومجمع البحور في علماء اليمن لابن أبى الرحال

البنى وخلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر للمحجى ، وعقد الجواهر والدرر في الحضريين والعلويين لمحمد بن أبى بكر باعلوى — ولكن فتح الله لا يقتصر على عمله الجمع من هذه المراجع بل أضاف هو الكثير من أخبارا وتراجم المصريين والشاميين بالذات — وهو في ثلاثة أجزاء مرتبة على حروف المعجم وإن بدأ بالمحمديين على غرار المتأخرين من مؤلفى التراجم — ومع أن هذا الكتاب يقتضب في تراجمه إلى حد بعيد ، إلا أنه يتميز عن غيره من أصحاب التراجم الشاميين بكثرة ما يورد من تراجم المصريين .

أما المحجى فهو صاحب كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ، وهو محمد الأبن فضل الله بن محب الله المحجى . ومع أنه حموى الأصل إلا أنه دمشقى المولد والدار ، حنفى المذهب . ولد بدمشق عام ١٠١١ هـ وتوفى في عام ١١١١ هـ . وهو الكتاب المطبوع من هذه المجموعة ، فقد طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٤ هـ في أربعة أجزاء ، رغم أنه أقل من ناحية الأهمية العلمية والتاريخية من المرجعين السابقين . حقيقة أنه تناول المائة الحادى عشر على نفس المستوى العربى العام ، اليمن والبحرين والحجاز والشام ومصر والروم ، إلا أنه يميل إلى الصياغة الأدبية ولا يقدم في الحقيقة مادة تاريخية بالمعنى المقهوم .

\* \* \*

ل فإذا وصلنا إلى القرن الثانى عشر نجد أن من أبرز التراجم في هذا القرن هو سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر ، ويسمى أيضاً أخبار الأعصار في أخبار الإنصار ، ويبدو أن هذه التسمية هى التى اختارها أولاً المرادى — وقد ترجم الجبرقى للدرادى في حوادث عام ١٢٠٦ هـ — فقد ذكر أنه ( لما توفى والده تنصب مكانه مفتى الخنيفة بالديار الشامية ونقيب الأشراف بامجاع الخاص ، والعام وما فيها أحسن سير وزين بما أثره العلوم النقلة ) ثم يقول ( وكان رحمه الله مغرماً بصيد الشوارد وقيد الآوابد واستعلام الأخبار وجمع الآثار وتراجم العصريين على طريقة المؤرخين ، وراسل فضلاء البلدان البعيدة )

ووصلهم بالهدايا والمرغائب للعديدة والتمس من كل جمع تراجم أهل بلاده وأخبار أعيان أهل القرن الثاني عشر بحسب وسع همته واجتهاده ) ثم أخذ الجبرتي يروي قصة علاقته بالزيدي والظروف الأولى التي أدت إلى كتابة الجبرتي نفسه للتاريخ على نحو ما ذكرنا في المحاضرات السابقة وهي في إيجاز :

أولاً : مرحلة جمع الجبرتي للتراجم عن المصريين بتكليف من أستاذه الزيدي ، بناء على طلب المرادي دون علم الجبرتي بصله الزيدي بالمرادي .

ثانياً : بلاغات الزيدي في ١٢٠٥ ، راسل المرادي الجبرتي وطلب إليه أن يكمل تراجمه التي كان قد بدأها مع الزيدي ، وعاد الجبرتي إلى التراجم مرة أخرى ، حتى توفي المرادي نفسه في سنة ١٢٠٦ - ويقول الجبرتي (وما أدرى ما فعل الدهر بتاريخه المذكور) - وهذا التاريخ هو الذي طبع في لاستانة عام ١٢٩١ هـ الأجزاء الأول والثاني والثالث وطبع الجزء الرابع بيولاقي سنة ١٣٠١ هـ .

ولقد كانت حركة كتابة التراجم قد انتقلت في العصر العثماني إلى بلاد الشام بصفة أساسية مع اتخاذها شكل المجال العربي العام ، إلا أنها عادت مرة أخرى بالتأكيد إلى مصر على يد الجبرتي . ولكنها عادت بتوجيه وتأکید شامى كما رأينا في الحديث عن الظروف التي أدت إلى كتابة الجبرتي للتاريخ ، والجبرتي قد ذكر قصة هذا التاريخ في ترجمته للمرادي ، وقد قال ما نصه ( وكان هو السبب الأعظم الداعى لجمع هذا التاريخ على هذا النسق ) . وتمثل التراجم جانباً كبيراً من تاريخ الجبرتي . ورغم أنه لا يتفرد بكتابتها بل يذكر حوادث كل سنة إلى جانبها - إلا أنها تحتل مكانة كبيرة من تاريخه ، فقد بدأ الجبرتي بها وهي تمثل الجزء الأكبر من كتابه ولا سيما في الجزئين الأول والثاني - وقد أطلق الجبرتي على كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، فقدم التراجم على الأخبار وهو أمر له دلالة في أهمية تراجم الجبرتي .

ويسير الجبرتي في طريقته في الترجمة ، على نحو محدد ، فيترجم للشايخ والعلماء ثم للأمراء وغيرهم من طبقات الناس . وقد ترجم قليلاً لأهل الذمة ، وترجم لسيده واحدة هي نفيسة المرادية زوجة مراد بك - ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن تراجم الجبرتي تحوى الكثير من المعلومات المتعلقة بالحوادث من التي لم ترد في سياق الأخبار نفسها . ولذلك فمن الخطأ أن يقتصر البعض على الأخبار دون الاستعانة بالتراجم في فهم هذه الأخبار نفسها ، بل على العكس تبدو التراجم أحياناً جمعاً للحوادث ومرتبعة ومنظمة لها وخصوصاً بالنسبة لتراجم الأمراء أمثال علي بك الكبير أو محمد بك أبو الذهب أو مراد أو إبراهيم - غير أن من أهم ما في تراجم الجبرتي التعرف على حياة الجبرتي نفسه . ففي هذه التراجم دراسة للعلماء الذين تتلمذ عليهم الجبرتي أو زاملهم أو درس لهم ، وفيها تصوير شامل للبيئة العلمية التي عاش فيها . ولئن كانت تراجم الجبرتي تتميز عن جميع التراجم السابقة بما تشمله من تحليل ونقد - لا وضع الحقائق المجردة في أضيق الحدود كما فعل السابقون - بحيث جاءت عاكسة للحياة العلمية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية معاً ، فإن ما يؤخذ على هذه التراجم أنها لم تكن بنفس المستوى من الشمول العربي الذي نلاحظه في تراجم المدرسة الشامية .

\*\*\*

#### مدرسة الأجناد

هناك فريق من المؤرخين في العصر العثماني يمثلون لوحدهم مدرسة خاصة إذا شئت - لم تكن صناعتهم كتابة التاريخ أو الاشتغال بالعلم ، بل كان أغلبهم من الأجناد مارسوا كتابة التاريخ كنوع من الهواية . وهذه المجموعة من كتاب التاريخ العثماني كانت موضع تجاهل وعدم اهتمام من جانب المعاصرين لهم في العصر العثماني بل من جانب المؤرخين المحدثين اليوم - ودليلنا على موقف المعاصرين لهم ما كتبه الجبرتي في مقدمة كتابه عجائب الآثار ، أنه حين شرع في كتابة كتابه هذا [ وأردت أن أوصله بشئ قبله فلم

أجد بعد البحث والتفتيش إلا بعض كرايس سودها بعض العامة من الأجناد ركيكة التركيب مخالفة التهذيب والترتيب وقد اعترأها النقص في مواضع من خلال بعض الوقائع [ ثم نجد دليلاً على تجاهل المؤرخين المحدثين لهم في أن هذه المجموعة من المؤرخين لم تنشر كتبهم ولم تحقق بل ولم تستخدم في البحث العلمي في تاريخ هذه الفترة حتى اليوم . ولقد نتج عن ذلك أن معلوماتنا عن هذه المجموعة من المؤرخين ضئيلة جداً ، لذلك يستحيل التعرف عليهم إلا في حدود ضيقة للغاية .

أول هؤلاء أحمد ابن زنبيل المحلى الرمال ، ولا تتحدث المراجع المعروفة بشيء عنه سوى أنه كان موظفاً بديوان الجيش العثماني في وقت ما وأنه رافق جيش السلطان سليم الأول أثناء الحروب التي أنهت دولة المماليك بمصر والشام وأنه حضر جنازة طومان باي آخر سلاطين المماليك لتوزيع الصدقات على روجه بأمر السلطان العثماني .

ولابن زنبيل كتاب ( تاريخ أخذ مصر من الجراكسة ) وهو سجل واف لحوادث الفتح العثماني من يوم خروج السلطان قانصوه الغورى من القاهرة للملاقاة العثمانيين بشمال الشام إلى يوم رجوع السلطان سليم الأول إلى استنبول . ولهذا الكتاب مكانة كبيرة منذ تأليفه ، ومنه كتبت نسخة أو نسخ شعبية ما برحت تسالية المقاهى بالقاهرة منذ القرن السادس عشر الميلادى (١) وترجمه السهيل إلى التركية منذ القرن السابع عشر ضمن كتاب له اسمه ( الدرة اليتيمة في تاريخ مصر القديمة ) واعتمد عليه مارسيل Marcel

أحد المستشرقين بالحملة الفرنسية على مصر ، في كتابه الذى ألفه في تاريخ مصر الإسلامية ولا يزال مرجعاً من الدرجة الأولى حتى الآن . ويقول الدكتور محمد مصطفى زيادة [ وربما عني به المعنيون بالتاريخ المصرى قريبا ، لتكون منه نسخة منشورة نشرها نهائياً مقارناً ، يطمئن إليه المؤرخون اطمئناناً علمياً ] (٢) والمعروف كذلك من أخبار ابن زنبيل أنه بقى حياً يرزق من

(١) زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر م ٧٥ وما بعدها .

(٢) زيادة : م ٧٥ وما بعدها .

وظيفة بديوان الجيش العثماني سنة ١٥٤٤ م ، وأنه أقام وقت ذاك ببلدة أبى قير الحالية قرب الاسكندرية وأنه توفى بعد سنة ١٥٥٢ م .

هذا بالنسبة للقرن العاشر ، ولكن القرن الحادى عشر يخلو - فيما يبدو - من هذا النوع من المؤرخين ، أو ربما كان هناك عدد منهم لم يصل إلينا خبرهم بسبب ضياع كتبهم إبان الحروب الأهلية أو الغزو الفرنسى .

وفي القرن الثانى عشر يظهر عدد منهم - والعل السبب فى ذلك امتلاء هذا القرن بحوادث الصراع بين الأوجاقات العثمانية والبيوت المملوكية - أهم هؤلاء على الشاذلى الذى عني بتاريخ ثورة افرنج أحمد (وهى مخطوطة صغيرة بدار الكتب المصرية) ، وأحمد الدمرداش كتنخدا عزبان صاحب كتاب ( الدرة المصانة فى أخبار السكانة ) (وهى مخطوطة ضخمة من جزئين بالمتحف البريطانى بلندن) ، وإبراهيم مصطفى صاحب كتاب ( تاريخ وقائع مصر القاهرة ) (مخطوطة من جزئين بالمسكينة التيمورية بدار الكتب) .

وليس لدينا ترجمة لأحمد الدمرداش كتنخدا عزبان ، فلم يشر إليه الجبرتي فى تراجمه ، كما لم نعر فى دفاتر دار المحفوظات بالقلعة على شيء يشير إليه . إننا من الواضح من لقبه أنه كان يتولى منصب الكتخدانية بأوجاق عزبان ، وهو يأتى بعد منصب الأغا قائد الأوجاق ، كما أن أوجاق عزبان يأتى فى المرتبة التالية لأوجاق الانكشارية - ومن ناحية أخرى يشير المؤلف أحياناً فى كتابه إلى نفسه عند ذكر بعض الحوادث بقوله ( وكان الحقيير حاضراً ) .

والكتاب يتناول تاريخ مصر السياسى منذ بداية القرن الثانى عشر الهجرى ( من سنة ١٠٩٩ هـ على وجه التحديد ) حتى سنة ١١٦٩ هـ . وقد ذكر المؤلف فى آخره الجملة التالية [ هذا وقد نهيت تاريخي على ذلك وأن أعطاني الله عمراً زدت به ما أراه عياناً ] ولما كنا نعلم أنه ليس هناك تاريخ بعد ذلك لهذا المؤلف فالمرجح أن يكون المؤلف قد توفى بعد عام ١١٦٩ هـ بقليل .

غير أنه من الواضح أن المؤلف كان يكتب مذكرات لحوادث عاشها  
وليس تحقيقاً تاريخياً : —

ما هي أهم ميزات هذا المؤلف ؟ أولاً — تبدو أهمية الرجل في الفترة التي  
عاشها ، وهي النصف الأول من القرن الثاني عشر ، وهي فترة غنية جداً في  
تاريخ مصر العثمانية وربما تكون أغنى فترة من الباحية السياسية لأنها الفترة  
التي شهدت الحروب بين الأوجاقات العثمانية وانهيار النظام الذي أسسه  
سليم وسليمان انهياراً تاماً والذي انتهى بسيطرة البكوات المماليك — ثم  
يضاف إلى ذلك أن الجبرتي بدأ يكتب بدقة وافاضة منذ ١١٩٠ هـ ، لذلك  
تعتبر كتابات الدر داش عزبان مسكلة لكتابات الجبرتي .

ثانياً — لما كان الدر داش عزبان ، ليس فقط معاصراً لهذه الأحداث ،  
بل اشترك فيها فإن كتاباته تتميز بالنا كيد عن مدرسة العلماء والمشايخ  
بفهمها العميق وبالأفاضة الواسعة للانقسامات والأحزاب العثمانية والمملوكية  
وهذا كله لا يمثل تاريخاً عسكرياً كما قد يتبادر إلى الذهن بل تاريخاً سياسياً  
لأنه صراع حول السلطة فالنظام العثماني كان يقوم على قاعدة عسكرية .  
وبالكتاب ثروة ضخمة جداً من المصطلحات العسكرية والإدارية والمالية  
الخاصة بالعصر العثماني وهي أمور تفتقر إليها كتب المشايخ والعلماء من  
المؤرخين .

ثالثاً — لا يجب أن يفهم من ذلك أن الكتاب هام فقط في فهم التطور  
السياسي أو التاريخ المحلي السياسي في مصر العثمانية ، فالواقع أن الكتاب  
يصور بدقة البناء العثماني في مصر ، وتركيب المجتمع المصري في العصر  
العثماني — خذ مثلاً التركيب الطائفي للمجتمع من خلال كلامه عن إبراهيم  
بك أبو شنب الذي كان قائداً على حملة عسكرية طلبها السلطان العثماني في  
١١٠٥ هـ قال ( اتجهزت الألفين ، أو كب إبراهيم أبو شنب بالسدادره وأصحاب  
الإدراك إلى بولاق ، نزل في قصر الحلبي وشيخ الشحاتين في ركابه مع طايفته  
وهم يصرخوا ويقولوا الله يردك علينا يا بيبك سالم لأنك أبو الفقرا ، لأنه كان

يعرفهم بالواحد ، إذا أعطى واحد منهم نصف فضة وجرى طلع الزميلة  
من المغفر وقف قدماه يقول له أخذت نصيبك في الصليبية ) ص ١٧ — ١٨  
ثم يذكر عند عودة إبراهيم بك في نفس السنة عن هذه التجربة ( وإذا  
يا إبراهيم بك شنب طلع بندر اسكندرية ، أرسل ساعى لسكرتيراه ، نزل الحلبي  
بالمعازق النحاس والطباخين يعملوا له سباط ، أخذت الشحاتين خبر  
جمعوا من بعضهم أربعة وعشرين ألف نصف فضة اشتروا بهم حصان معبا  
مزركش وسرج مغرق ورشمه ورخت وغداره ودبوس وركاب مطلي ، فلما  
طلع الحلبي ونزل على السباط قدموا له تلك الحصان المرخت فقبله منهم وقطع  
لهم وصلاً بثلاثين ألف فضة ، بات تلك الليلة وعند الصباح ركب حصان  
الشحاتين وظل عند الباشا خلع عليه فقطان السلامة ) ص ١٨ — ١٩ .

مثل هذا النص يصور التركيب الطائفي للمجتمع ، وهو تركيب ينتظم فيه  
جميع أفراد المجتمع على اختلاف حرفهم وأعمالهم ومذاهبهم فيضع كل  
أصحاب حرفة مهما بلغت من الانحطاط في مكانها من المجتمع وتعترف بها  
الدولة وتحترمها وتعامل معها على هذا الأساس .

رابعاً — والكتاب كذلك مجال للدراسة الاقتصادية ، فهو يذكر دائماً  
أسعار الحاجات في ارتفاعها وانخفاضها ، كما يقدم صورة زاهية جداً عن الحياة  
الاجتماعية : العادات والتقاليد الوطنية والدينية .

أما كتاب إبراهيم مصطفى ( تاريخ وقائع مصر القاهرة ) فهو يتناول نفس  
الفترة الزمنية التي يتناولها كتاب عزبان أي النصف الأول من القرن الثاني  
الثاني عشر الهجري وبنفس الأسلوب في المعالجة وأن كان واضحاً من المقارنة  
بين الكتابين أن عزبان كان أكثر اتصالاً بالأحداث وأكثر عناية بالجوانب  
الاجتماعية والاقتصادية من حياة المجتمع .

ومن المؤكد أن في كل من عزبان وإبراهيم مصطفى مجال واسع للدراسة  
اللغوية فالكتابان مكتوبان بلغة أقرب للعامة منها للفصحى .

قدمنا نماذج للكتب التاريخية في العصر العثماني أي ابتداء من الفتح العثماني حتى نزول الحلة الفرنسية بأرض مصر . وواضح من هذه النماذج التي عثرنا عليها أنه لم يكتمل حتى الآن ثبت بكافة المؤرخين الذين عاشوا هذه الفترة وكتبوا عنها — غير أنه من الواضح أن مدرسة التراجم كانت أنشط المدارس التاريخية خلال هذا العصر ، وأنه إلى جانب التراجم التي تمثل العمود الفقري في الكتابة التاريخية في العصر العثماني وجدت مجموعتان من المؤرخين : مجموعة العلماء والمشايخ التقليديين وكانت تحاول أن تنشط وتستعيد التقليد المصري المملوكي في الكتابة التاريخية : أولهم ابن إياس في القرن العاشر وفي الوسط ابن أبي السرور البكري الصديق في القرن الحادي عشر والجبرتي في القرن الثاني عشر ، وهذه المدرسة قد ضاعت تماما بعد الجبرتي . والمجموعة الثانية هي مجموعة الأجناد الذين كتبوا بالعامة أو شبه الدامية والذين أهملوا إهمالا تاما من جانب المعاصرين والمحدثين وهؤلاء أيضا اختفوا اختفاء تاما بعد عزبان . ونريد أن نصل من هذا إلى حقيقتين : أولا — أن المهمة الأولى للباحثين اليوم في التاريخ العثماني يجب أن تتجه إلى نشر كل هذه المخطوطات التاريخية فبدونها لا يمكن أن يكتمل بناء التاريخ المصري في العصر العثماني سيما وأنها نفتقر فعلا إلى مادة تاريخية عن هذه الفترة وبالذات فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية والاجتماعية . ثانيا — أن العصر العثماني — على فقرة في كثير من الجوانب الفكرية — شهد محاولات ضعيفة ومتردة نحو إعادة تكوين المدرسة التاريخية التي عرفها العصر المملوكي ، ومع ذلك فهو أكثر ثراء في ناحية الكتابة التاريخية من العصر اللاحق على العصر العثماني الذي قرغ كلية من مدرسة تاريخية واضحة المعالم ولها تقليد معين .

هذا الكتاب من كتب التاريخ العثماني  
التي كانت موجودة في مكتبة  
الشيخ محمد علي باشا  
في القاهرة  
في سنة ١٢٨٠ هـ  
١٨٦٤ م

مكتبة  
الشيخ محمد علي باشا  
في القاهرة  
في سنة ١٢٨٠ هـ  
١٨٦٤ م

دار الجليل للطباعة  
١٤ شارع مصر الزوارة - العقبة  
تليفون: ٤١٤٩٩